-.-.-.-.-.-.-.-.-.-.-

لكل شاعر .. حكاية

-.-.-.-.-.-.-.-.-.-.-.-.-.-.-.

لكل شاعر .. حكاية

تأليف

سعد بن عبد الله الغريبي

1433 هـ - 2012 م

اسم الكتاب: لكل شاعر حكاية

اسم المؤلف: سعد بن عبدالله الغريبي

لوحة الغلاف: الفنانة التشكيلية أمل فلمبان

رقم الإيداع الدولي:978-603-00-8732-7

الطبعة الأولى: 1431هـ -2012

طبع في بيروت

لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب أو اختزان مادته بطريقة الاسترجاع، أو نقله، على أي نحو، أو بأي طريقة سواء أكانت الكترونية أم ميكانيكية أم بالتصوير أم بالتسجيل أم خلاف ذلك إلا بموافقة كتابية من المؤلف مقدما.

جميع الحقوق محفوظة

إهداء

إلى أصدقاء الحرف في مدونات " مكتوب "

الذين ما فتئوا يحرضونني على نشر هذا الكتاب !!

بين يدي هذا الكتاب

ما الذي يجمع بين شاعر بدوي مخضرم كأبي ذؤيب الهذلي، وبين شاعر أموي أنيق كيزيد بن الطثرية؟!

وما الذي يجمع بين شاعر متسول في بلاط الخلفاء العباسيين ببغداد كأبي دلامة، وبين من حوى المُلك والحب كالمعتمد بن عباد في الأندلس؟!

وما الذي يجمع بين زكي قنصل في مهجره بأمريكا الجنوبية، وبين حمد العسعوس في قريته النجدية السعودية؟!

بل كيف جمع عبد الرحمن بن أبي عمار في نفسه بين زهد الناسك وصبوة العاشق؟!

قد لا يجد القارئ الكريم لأول وهلة أي رابط بين الشخصيات التي يضمها هذا الكتاب، لكنني على ثقة أنه سيدرك أن كل شاعر من هؤلاء لديه صفة يختلف فيها عن الآخر، وأنني قد سلطت الضوء عليها دون غيرها.. قد لا تكون هذه الصفة مقصورة عليه وحده، لكنها تكون عنده أوضح ما تكون.. وليس بالضرورة أن تكون الصفة حسنة أو فضيلة، بل قد تكون على النقيض من ذلك صفة ذميمة منفرة!!

وليعلم القارئ الكريم - بين يدي هذا الكتاب - أنه كما لم تكن الصفات التي تميز هؤلاء كلها صفات فاضلة لم تكن كذلك قصائدهم هي أجمل القصائد ولم يكونوا هم أجود الشعراء على الإطلاق.. فلم يكن هدف هذا الكتاب تقديم نماذج متميزة للشعراء ولا لغرر القصائد المتداولة في وسائل الإعلام المقروءة والمسموعة، بقدر ما كان الهدف تسليط الأضواء على صفات معينة اتسم بها هؤلاء الشعراء حتى أصبحت تمثل هاجسا في حياتهم انعكس على فنهم.. ولذلك لم أتناول ما تعارف عليه النقاد من أنهم كبار الشعراء لأني لا أعترف للشعر بكبير ولا أمير، فالشعر خلجة من خلجات النفس إذا لامست الموهبة المتقدة جاءت تجربة شعرية متميزة مبدعة، وكان الشاعر متميزا مبدعا وأتى بما لم تستطعه الأوائل!! لذا كان معظم ضيوف هذا الكتاب من الشعراء الأقل شهرة أو الذين نسيهم الزمان في طياته، لكنهم كانوا أصدق تعبيرا عن دواخلهم وأثرى تجربة.. هكذا بدوا لي وأنا أحاول الغوص في مكنونات أنفسهم، وأستجلي صورهم ..

وليس هدف هذا الكتاب أن يقدم دراسة تفصيلية عن حياة الشاعر وشعره فيعرض لعصره وأسرته ويصف بيئته التي نشأ فيها ويتناول دراسته وثقافته وموهبته، ثم ينتقل إلى شعره فيعدد أغراضه وتأثره بمن سبقه وتأثيره فيمن لحقه، ويستعرض قصائده بالنقد مبينا محاسنها وعيوبها وأسلوب الشاعر ولغته وأفكاره مما أصبحت من الأسس الرئيسة في أي دراسة أدبية للشاعر وشعره..

وهو ليس كتابا في النقد أو تحليل النصوص والمضامين وإن توقفتُ عند بعض النصوص وأبديت فيها رأيي ، ولا هو كتاب في التأريخ الأدبي أو السياسي وإن كنت وقفت وقفات تأمل لبعض الأحداث التي لا بد منها لإحاطة القارئ الكريم بظروف الشاعر أو ظروف القصيدة.. إنه كتاب ينتمي إلى الكتب ذات الطابع الترويحي الخفيف، ففيه حكايات طريفة مسلية لبعضهم وقصص محزنة ونهايات مأساوية لآخرين، وفيه نماذج لشعراء نذروا أنفسهم للحب وأخلصوا له، وشعراء اتخذوا الحب تقليدا أو تسلية, وفيه أمثلة لشعراء مكافحين أمضوا حياتهم بحثا عن كرامة أو منصب أو حتى لقمة عيش، وآخرين لاهين عابثين يعيشون عالة على المحسنين ويستخدمون لذلك شتى الوسائل من استجداء أو مديح كاذب أو حتى هجاء!!

ولم تكن كتابتي – على حسب اعتقادي – ذاتية محضة، فقد عمدت إلى استنطاق الشاعر نفسه من خلال شعره، فقرأت قصائده ومنها رسمت صورته وأبرزت صفاته ورويت حكايته، واستشهدت أحيانا بأقوال النقاد عنه من معاصرين ولاحقين.

وحتى يحقق الكتاب مراده من تسلية القارئ لم أشأ أن ألتزم بأسلوب واحد عند الحديث عن شخصياته ، فلجأت تارة للسرد المباشر المطعم بحكايات واقعية أو متخيلة ، وتارة كنت أصنع حوارا بيني وبين صديق متذوق للأدب مثلي.. وطورا كنت أنتقل بنفسي لمقابلة الشاعر في عصره وبين أهله ، وطورا أستحضره إلى عصرنا الحديث ..

ولم تكن فكرة إصدار هذا الكتاب ماثلة في ذهني حين شرعت في الكتابة عن أول شخصية من شخصياته .. ربما لو كانت الفكرة واضحة منذ البداية لتغيرت خارطة الكتاب ومنهجه و شخصياته .. ولربما وزعت الشعراء بالتساوي بين عصور الأدب المختلفة أو أخذتهم كلهم من عصر واحد أو طبقة واحدة .. لكنني حين أنهيت الكتاب رأيت أن المصادفة كانت خيرا من التخطيط!..

الشيء الوحيد الذي تدخلت فيه حين قررت نشر هذا الكتاب هو ترتيب الشخصيات الذين ضمهم الكتاب ترتيبا زمنيا من الأقدم إلى الأحدث..

بقي أن أشير إلى أنني لم أورد مسردا بالمصادر والمراجع التي استقيت منها معلومات كتابي ، لكنني أشرت في أثناء السرد إلى بعضها إذا استدعى الأمر ذلك ، والسبب يعود إلى أن معظم المعلومات الواردة في الكتاب معروفة في مظانها من كتب الأدب والتاريخ، وليس لي سوى الصياغة الأدبية والقوالب الجديدة التي سكبت المعلومات فيها..

كل ما آمله أن تكون السياحة بين دفتي هذا الكتاب، أو السباحة بين ضفتيه ممتعة ومريحة..

المؤلف

أبو ذؤيب الهذلي
في معرض الكتاب

وأنا أهم بالدخول إلى معرض الرياض الدولي للكتاب كان رجال الأمن يحتجزون شيخا جليلا غريب الهيئة، حين رآني صرخ مشيرا إليّ: هذا يعرفني ويكفلني!! التفتُّ إليه وأمعنت النظر في سحنته، فإذا هو أبو ذؤيب الهذلي الشاعر المخضرم الذي كتبت - مستعيرا اسمه - بضعة أشهر في بداية إنشائي مدونتي..

خلصته من رجال الأمن واتجهنا معا إلى المقهى الذي يحتل ركنا من المعرض، وقد هدأ روعه.. شكا إلي من الناس الذين مروا به ولم يعرفوه مع أن جُلهم من أرباب الفكر والثقافة.. قلت له: لست وحدك يا أبا ذؤيب المجهول في عالمنا اليوم.. سآخذك الآن في جولة في المعرض لترى بنفسك من يحتل صدارة المطبوعات، وأين أصبحتَ أنت وزملاؤك!

قال لي : دعك من هذا.. أنا عاتب عليك.. استعرت اسمي بناء على شروط بيننا، وخالفتها.. وها أنت تنسلخ من اسمي وتكني نفسك بأبي عبد الله نسبة إلى فلذة كبدك دون إشعاري أو شكري على الفترة التي أمضيتَها متخفيا تحت اسمي ومحملا إياي مسؤولية ما تكتب!!

أطرقت منه خجلا وقلت له: سامحني يا أبا ذؤيب.. لقد اتفقت معك على ألا أخرج عن مسار الفصحى، وأن تكون كتاباتي جادة تليق باسمك، ولكني ضعفت أمام إلحاح الفكرة، فالفكرة حين تأتي تفرض نفسها. بل تفرض لون كتابتها شعرا أو نثرا.. فصيحا أو عاميا..

قال لي: لا عليك فقد سامحتك لأنك أنقذتني من هؤلاء الأجلاف.. ثم استطرد: ولكني أعرفك يا أبا عبد الله لا تكتب في السياسة ولا في الاختلافات المذهبية والعرقية فلِمَ لا تكتب باسمك الصريح؟!

قلت له: يا أبا ذؤيب . إنني أكتب أحيانا عن قصص العشاق وأتعاطف معهم وأخشى أن يقرأني من يعرفني فيظن أني أكتب قصتي أو قصة من أحب فيفضحني!!

قال لي - وقد فغر فاه دهشة - : وهل مازلتم – كما كنا في عصرنا – تعدون الحب عيبا وتزدرون أصحابه؟!

قلت: هو ذاك..

قال لي: وكيف تتواصلون مع من تحبون؟ هل عن طريق الرسل كما كنا نفعل؟

قلت: لا.. لقد تطورت وسائل الاتصال الحديثة، فلدينا الهواتف الثابتة والمتحركة ولدينا الإيميلات والبلوتوث والـ..

قال: لا أفهم ما تقول.. المهم أنكم لا تحتاجون إلى وسيط بينكم وبين من تحبون؟

قلت: يا أبا ذؤيب لقد شَكّلتْ خيانة ابن أختك خالد بن زهير – الذي اتخذته رسولا بينك وبين محبوبتك أم عمرو – عقدة في حياتك فهلا حدثتني عنه؟

قال: تعرف أنني سيد قومي وأن الحب عندنا شبيه بالعار، فكنت لا أقدر على البروز لمحبوبتي أم عمرو فاتخذت ابن أختي خالدا رسولا إليها بما لدي من أقوال أو هدايا، ويبدو أنني وضعت ثقتي عند من لا يستحق وقد خانني خالد فيها.

فقاطعته وقلت له: ولكنها لو أرادت ما تحولت منك إليه!

قال: هذا صحيح، وقد جاءت تسترضيني بعد ذلك فأبت نفسي، وقلت قصيدتي المشهورة التي مطلعها:

تريدين كيما تجمعيني وخالدا
وهل يجمع السيفان ويحك في غمد؟

قلت لأبي ذؤيب: هل تأذن لي أن أنشر قصتك هذه في مدونتي؟!

تمعّر وجهه غضبا وصاح حتى لفت انتباه المجاورين لنا في المقهى: لا.. ألم يرُقْ لك من أشعاري وأخباري إلا هذه الحادثة؟!

قلت: اعذرني يا أبا ذؤيب فمدونتي هذه اتخذتها أنا وزواري واحة نستريح فيها من عناء الموضوعات الجادة.. إنها أشبه بركن للتسلية والمتعة.

قال: لِمَ لا تنشر قصيدتي العينية في رثاء أبنائي؟

قلت: أعرف أنها من درر الشعر العربي وتكاد تكون أفضل قصيدة قيلت في الرثاء لا سيما أنك قلتها بعاطفة الأب المكلوم، فقد فقدتَ خمسة من أبنائك في عام واحد، واحدا تلو الآخر، ولكن منعني من ذلك صعوبة ألفاظها وطول أبياتها التي تتجاوز الستين بيتا، ولكنني سأختار منها مقدمتها، ومَنْ أَشْكَلَ عليه فَهْمُ شيء من أبياتها فعليه الرجوع إلى لسان العرب..

قال: وما لسان العرب هذا؟

قلت: هذا معجم ألفه ابن منظور الإفريقي بعدك بمئات السنين، وقد ضمّنه ستمائة بيت من أشعارك كلها شواهد لغوية ونحوية..

قال لي - بأسى - : ألهذه الدرجة أصبحت لغتنا غريبة عليكم؟! ..

***

حينها تنبهت من نومي، وقد ذهب عني التعب الذي أدركني ليلة البارحة جراء جولتي المرهقة في قاعات معرض الرياض الدولي للكتاب ووجدت إلى جواري كتابي "شاعر هذيل والمتحدث الرسمي باسم القبيلة"..

جلست إلى جهاز الحاسب الآلي أدون حديثي مع أبي ذؤيب قبل أن يتبخر من ذاكرتي، ورأيت أن أبدأ بنبذة يسيرة عنه فكتبت:

أبو ذؤيب الهذلي سيد من سادات قومه واللسان المعبر عن قبيلته، عاش بينهم مدافعا بسيفه ولسانه ناصرا مظلومهم ووسيطا في خصوماتهم، رجلا وقف حياته على مكارم الأخلاق جاهليا وزاده الإسلام رفعة شأن..

رحل إلى المدينة المنورة يريد صحبة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فوجد الصحابة - رضوان الله عليهم - يستعدون للصلاة عليه ودفنه..

***

قدم أبو ذؤيب على عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - وقال له: أي العمل أفضل يا أمير المؤمنين؟

قال: الإيمان بالله ورسوله.

قال: قد فعلتُ، فأية أفضل بعده؟

قال: الجهاد في سبيل الله.

قال: ذلك كان علي وأنا لا أرجو جنة ولا أخاف نارا.

ثم خرج مع جيش المسلمين الذي غزا الروم وتوفي في أثناء عودته من القتال..

***

كانت له أخباره اللاهية ومعظمها في الجاهلية، وما كان منها في إسلامه فلعله من لغط الشعراء الذين بقولون ما لا يفعلون..

شعره جاهلي الطبع وعر اللفظ وأغراض شعره تقليدية صرفة لم تتجاوز خمسة أغراض هي الرثاء والغزل والوصف والفخر والمديح، والأخيران نادران في شعره.. أما المجال الذي هو فارسه فهو الرثاء وبخاصة رثاؤه لأبنائه، وإن كان ذلك في قصيدة واحدة لكنها بديوان..

***

ثم فتحت ديوانه أنقل هذه الأبيات من قصيدته العينية في رثاء أبنائه الخمسة:

أمِنَ المَنــونِ وريبِــها تتوجّـعُ
والدهرُ ليس بِمُعْتِبٍ من يجزعُ

قالت أميمــة ما لجسمك شــاحبا
منذ ابتذلت ومثل مالك ينفع

أمْ ما لجنبك لا يلائــم مضـجعا
إلا أقَـضّ عليك ذاك المضجع

فأجـبتها أنْ مـا لجسـمي أنَّـــه
أودى بني من البلاد وودّعُـوا

أودى بَنيّ وأعقبـوني حسـرة
بعـد الرقـاد وعبـرة لا تقلـع

ولقـد أرى أن البكـاء سـفاهة
ولسوف يولع بالبكى من يفجع

سـبقوا هويّ وأعنقـوا لهـواهم
فتُخُرّموا ولكل جنب مصـرع

فغـبرت بعـدهم بعيـش ناصـب
وإخال أني لاحـق مســـتتبع

ولقد حرصـت بأن أدافـع عنهم
فإذا المنيـة أقبـلـت لا تُدفـع

وإذا المنية أنشـبت أظـفارهـا
ألفيـت كـل تميمـة لا تنفـع

فالـعين بعدهم كـأن حـداقها
سُمِلتْ بِشَـوْكٍ فهي عور تدمع

حتى كـأني للحـوادث مـروة
بصـفا المشـرق كل يـوم تقـرع

وتجلدي للشامتين أريهم
أني لريب الدهر لا أتضعضع

والنفس راغبة إذا رغبتها
وإذا تُرَدُّ إلى قليل تقنع

لا بد من تلف مقيم فانتظر
أبأرض قومك أم بأخرى المضجع

وليأتين عليك يوم مرة
يُبكى عليك مقنعا لا تسمع

ولئن بهم فجع الزمان وريبه
إني بأهل مودّتي لمفجع

كم من جميعي الشمل ملتئمي القوى
كانوا بعيش قبلنا فتصدعوا

***

مسكين الدارمي:

شاعر الدعاية والإعلان

جلست إلى صديقي تاجر الملابس النسائية في متجره، وكان في عجلة من أمره، وفي شغل شاغل.. يتكلم مع هذا بالهاتف وينادي آخر، ويُسلّم هذا ورقة، ويتَسَلّم من آخر ورقة أخرى.. تركته هكذا حتى نفض ما في يده ثم أقبل عليّ بكل جوارحه..

قال: لا تؤاخذني فموضوع الخُمُر السود قد شغلني جدا..

قلت له: هل لي بمزيد من الإيضاح؟!

قال: يا أخي لا أدري ما سر تمسك نسائنا بالخُمُر السود؟! لقد نفدت كل الكميات التي استوردتها قبل شهرين، ومع أن لدي الآلاف من الخمر المتعددة الألوان إلا أنه لا أحد يسأل عنها!!

همهمتُ بصوت مسموع: رحمك الله يا مسكين!!

قال صاحبي – مستنكرا - : أتُوَجّهُ الكلام لي؟! أأنا المسكين؟!

قلت: لا. هذا شاعر مكي عاش في القرن الأول الهجري اسمه (مسكين الدارمي).. كان أولَ من أعلن عن الخمار الأسود!!

قال: كيف؟!

قلت: قَدِمَ إلى المدينة المنورة صديق لهذا الشاعر تاجر من أهل الكوفة بخُمُر فباعها كلها ما عدا السود منها فلم يبع منها شيئا، لأن نسوة المدينة كُنّ لا يرتدين الخمار الأسود، فشكا التاجر الكوفي أمره إلى صديقه مسكين، وكان مسكين هذا قد شاخ واعتزل قول الشعر، لكن حبه لصديقه ورغبته في مساعدته أباح له التحرر مما ألزم نفسه به فنظم أبياتا من الشعر يقول فيها:

قل للمليحة في الخمار الأسود ماذا فعلتِ بناسك متعبد

قد كان شمّر للصلاة ثيابه حتى وقفتِ له بباب المسجد

ردي عليه صلاته وصيامه لا تقتليه بحق دين محمد

وأوصى صديقه أن يدفعها إلى أشهر المغنين بالمدينة ليغنيها!!

قال صاحبي: وما كانت النتيجة؟!

قلت: نفدت كل الخمر السود ولم يتبق منها خمار واحد!!

قال صديقي التاجر: وكم قبض مسكين ثمنا لهذه الدعاية؟!

قلت له: لقد أنْسَتْكَ التجارة أصول الصداقة فيما أظن.. إن مسكينا هذا محب لصديقه وحريص على صداقته، ولم يفكر يوما ما في الدراهم، وإلا لما عاش مسكينا ومات مسكينا!! لكن الدعاية التي أخذ عنها مبلغا مجزيا كانت دعايته ليزيد بن معاوية!!

قال: ابن الخليفة معاوية؟!

قلت: نعم.. كان يزيد بن معاوية يؤثر مسكينا الدارمي ويصله، ويقوم بحوائجه عند أبيه، فلما أراد معاويةُ البيعةَ ليزيد تهيّب ذلك وتوقع أن لا يلقى قبولا من بني أمية خاصة مع كثرة المرشحين للخلافة، ومع تعالي أصوات معارضة مثل سعيد بن العاص ومروان بن الحكم وعبد الله بن عامر، فأمر يزيد مسكينا أن يقول أبياتا وينشدها في مجلس أبيه إذا كان حافلا بوجوه بني أمية، فلما اتفق ذلك دخل مسكين على معاوية ويزيد عن يمينه وبنو أمية وأشراف الناس حواليه فأنشأ يقول:

ألا ليت شعري ما يقول ابن عامر
ومروان أم ما ذا يقول سعيد

بنــي خـلفاء الله مهـلا فإنّمـــا
يبوئها الرحمن حيث يريـد

إذا المنبر الغربي خـلاّه ربُّهُ
فـإنّ أميــرَ المؤمنيـن يزيــدُ

فقال له معاوية: ننظر فيما قلتَ ونستخير الله.. ولم يتكلم أحد من بني أمية إلا بالإقرار والموافقة!! فوصله يزيد ووصله معاوية فأجزلا صلته!!

قال صاحبي: هل اسمه مسكين؟!

قلت: لا.. مسكين لقب غلب عليه، إنما هو ربيعة بن عامر، شريف في قومه ينتهي نسبه إلى زيد مناة بن تميم، كان جده قَتَلَ أسعدَ بن

عمرو بن هند ففر مع قومه إلى مكة وحالفوا بني عبد مناف، ونشأ الفتى ربيعة في مكة، فكان من أظرف شبابها وأرقهم طباعا، وإنما لُقّب مسكينا لقوله:

أنا مسكين لمن أنكرني ولمن يعرفني جِدٌّ نطق

لا أبيع الناس عرضي إنني لو أبيع الناس عرضي لنفق

وقوله أيضا:

سمّيتُ مسكينا وكانت لجاجة وإني لمسكين إلى الله راغب

قال صاحبي: وهل يتطابق لقبه مع حياته وشخصيته؟

قلت له: إنه كان هادئ الطبع محبا لأصدقائه وإخوانه.. أليس هو القائل:

أخاك أخاك إن من لا أخا له
كساع إلى الهيجا بغير سلاح

وإن ابن عم المرء فاعلم جناحه
وهل ينهض البازي بغير جناح

فغر صاحبي فاه دهشة وقال: يا الله.. أنا أحفظ هذين البيتين منذ كنت طفلا ولا أدري لمن هما!!

قلت: وما أكثر الأبيات التي سارت عبر القرون لا يُدرى من قائلها.. واستطردتُ لما رأيت صاحبي راغبا في الاستزادة فقلت له:

أتعلم أن هذين البيتين كانا سببا في صفح عبد العزيز بن مروان عن أخيه بشر والي العراق؟!

قال: كيف؟!

قلت: كتب عبد العزيز بن مروان إلى أخيه بشر، فورد عليه الكتاب وهو ثمل، وكان فيه كلام أغضبه، فأمر بشرٌ كاتبَه فكتب جوابا قبيحا، فلما ورد الكتاب على عبد العزيز علم أنه كتبه وهو سكران فجفاه وقطع مكاتبته زمانا، وبلغ بشرا عتبُه فكتب إليه معتذرا وضَمّن كتابه بيتي مسكين الدارمي المتقدمين، ولما قرأ عبد العزيز الكتاب دمعت عيناه وقبل عذره وأقسم عليه أن لا يعاشر أحدا من ندمائه الذين حضروا ذلك المجلس وأن يعزل كاتبه!!

قال صاحبي: لِنَعُد إلى مسكين.. أظنه كان ضعيف الشخصية، ولذلك فهو يحتاج إلى من يتقوّى به!!

قلت له: يا صديقي هذا الذي أرعب الفرزدق!! لقد هجاه الفرزدق مرة على خلاف بينهما فرد عليه مسكين ردا قاسيا مما اضطر الفرزدق أن يصمت بعدها وظل طول حياته يحمد الله على أن أنجاه من الاستمرار معه في الهجاء.. لقد ظل الفرزدق يردد أن الله قد أنجاه في حياته من ثلاث، وعدّ منها نجاته من مهاجاة مسكين!!

قال صاحبي: أظن أنه خسر بانسحاب الفرزدق من المهاجاة، وإلا كان صاحبك مسكين في شهرة الفرزدق.

قلت: قد يكون هذا صحيحا.. لكنه أراح واستراح.. لقد كان ميّالا إلى المسالمة والموادعة!! استمع إليه يتحدث عن نفسه كيف يتصرف لو أساء إليه أحد:

ولما رأيتك أوليتني الـ
ـقبيح وأبعدت عني الجميلا

تركتُ وصالك في جانب
وصادقتُ في الناس خلا بديلا

بل إن سياسة المسالمة هذه يطبقها على أهل بيته، فهو لا يؤيد تأديب المرأة لحملها على العفة مدعيا أن المرأة الصالحة لا يفتنها النظر وأنها إن كانت صالحة فإنها ستحفظ نفسها، وإن الإكراه أو السوط لا يمكن أن يأتي بالحب إن لم يهبه الله:

تغار على الناس أن ينظروا
وهل يفتن الصالحات النظر

وإني سأخلي لها بيتها
فتحفظ لي بيتها أو تذر

إذا الله لم يعطني حبها
فلن يعطي الحبَّ سوطٌ ممر

قال صاحبي: لم يعجبني رأيه هذا، وقد يكون دليلا على ما توقعته من ضعف شخصيته وربما سوء سلوك زوجه وعجزه عن تقويمها!! هل لك أن تحدثني شيئا عن حياته الأسرية؟

قلت له: إن الفرق رفيع بين المسالمة وضعف الشخصية.. أظنه من الرجال الذين لا يعدّون القسوة على المرأة مما يُتباهى به، مع أنه تعرض للكثير من أذاهن!!

فمن أخباره أنه خطب فتاة من قومه فكرهته لسواد لونه وقلة ماله، وتزوجت من بعده رجلا ذا يسار وليس له مثل نسبه، فمر بهما مسكينٌ ذات يوم فقال:

أنا مسكينٌ لمن يعرفني
لوني السمرة ألوان العربْ

من رأى ظبيا عليه لؤلؤ
واضح الخدين مقرونا بضب

أكسبتْهُ الوَرِقُ البيضُ أبًا
ولقد كان وما يدعى لأب

رب مهزولٍ سمينٌ بيتُهُ
وسمينِ البيت مهزولُ النسب

***

وكانت له امرأة من منقر، فاركا كثيرة الخصومة، فجازت به يوما وهو في نادي قومه ينشد قوله:

إن أكُ مسكينا فما قصرت
قدري بيوت الحي والجدرُ

فوقفت عليه تستمع حتى إذا بلغ:

ناري ونار الجار واحـدة
وإليــه قبلي تنــزل القـدر

قالت له: صدقت والله.. يجلس جارك يطبخ قدره فتصطلي بناره ثم ينزلها فيجلس يأكل وأنت بحذائـه كالكلب فإذا شبع أطعمك.. أجل والله إن القدر لتنزل إليه قبلك!!

فأعرض عنها واستمر في قصيدته حتى بلغ قوله:

ما ضــرّ جارا لي أجــاوره
أن لا يكــون لبيتــه ســتر

فقالت له: أجل.. إن كان له ستر هتكته..

فوثب إليها يضربها وجعل قومه يضحكون منه!!

***

قال صاحبي: قلتَ لي في بداية حديثك إنّ مسكينا كان من ظرفاء مكة؟! هذه واحدة من طرفه.. هل لي بالمزيد؟

قلت: أجل.. كانت فتيات مكة لا يطيب لهن التنزه إلا معه لظرفه، فخرج مجموعة منهن ذات يوم إلى مُتَنّزه لهن بالجُحْفة - خارج مكة - وفيهن صديقة له، وكل واحدة منهن قد واعدت صاحبها فقال بعضهن لبعض: كيف لنا أن نخلو مع هؤلاء الرجال والدارمي معنا؟

قالت لهن صاحبته: اتركنه لي.

فأتته وكانت تعلم فقره وبخله وقالت له: يا دارميّ اذهب واجلب لنا طيبا..

قال: نعم الآن أذهب إلى الجحفة وآتيكن بطيب..

فلما وصل الجحفة اكترى حمارا وركبه إلى مكة وهو يقول:

أنا بالله ذي العزّ وبالركن وبالصخره

من اللائي يردن الطيب في اليسر وفي العسره

وما أقوى على هذا ولو كنت على البصره

فمكثت النسوة يومهن ثم عدن إلى مكة فلقيته صاحبته ليلة في الطواف فأخرجته منه وأخذت تعاتبه على مغادرته المتنزه ويعاتبها، إلى أن قالت له: بحق هذه الكعبة أتحبني؟

قال: نعم . فبحقها: أتحبينني؟

قالت: نعم..

قال: فأنتِ تحبيني وأنا أحبك، فما دخل الدراهم بيننا؟!

***

وكان للدارمي حقٌّ عند الأوقص قاضي مكة فأبطأ في رده إليه، وفي الوقت نفسه اشتكاه خصم له في حق فحبسه القاضي، فبينما القاضي في المسجد الحرام يدعو ويقول: يا رب أعتق رقبتي من النار، قال له الدارمي - والناس يسمعون - : أولك رقبة تعتق؟!

قال الأوقص: ويلك .. من أنت؟

قال: أنا الدارمي الذي حبسته ولم ترد حقه.

قال: لا عليك اصمت وسأعوضك!!

***

وخرج الدارمي فصادف جماعة فسألهم وأعطوه دراهم حملها في ثوبه، ثم إنه مر على أعرابيات فجعلنَ يسألنه ويلححن وهو يردهن، فعرفته صبية منهن فقالت لرفيقاتها: يا أخواتي أتدرين من تسألن؟ هذا الدارمي السّآل ثم أنشدت:

إذا كنت لا بد مستطعما فدع عنك من كان يستطعم

فولّى الدارمي هربا منهن وهن يتضاحكن!!

***

قال له محمد بن إبراهيم الإمام يوما ما: لو صلحت عليك ثيابي لكسوتك..

قال : إذا لم تصلح عليّ ثيابك صلحت عليّ دنانيرك!!

***

ومن نوادره الطريفة أنه كان عند عبد الصمد بن علي يحادثه فأغفى عبد الصمد، فعطس مسكين عطسة هائلة فزع منها عبدالصمد فزعا شديدا وغضب واستوى جالسا وقال له: أتفزعني؟!

قال: لا والله ولكن هذا عطاسي..

قال: والله لأنقعنك في دمك أو تأتيني ببينة على ذلك..

فخرج ومعه حارس لا يدري أين يذهب، فلقيه صديقُه ابنُ الريّان المكي فلما أعْلَمَهُ قصتَه قال: أنا أشهد لك..

فمضوا حتى دخلوا على عبد الصمد، فقال لابن الريان: بم تشهد؟

قال: أشهد أنه عطس مرة عطسة سقطت منها ضرسه..

فضحك عبد الصمد وأخلى سبيله!!

***

ودخل مرة على عبد الصمد فأنشده أبياتا يمدحه فيها، فلما فرغ أُدخِل إلى مجلسه رجل من الشراة (الخوارج) فقال لغلامه وهو يهم بالخروج: أعطِ هذا مائة دينار، واضرب عنق هذا..

فوثب الدارمي وقال: بأبي أنت وأمي فليبدأ بقتل هذا قبل خروجك..

قال له عبد الصمد: ولِمَ، ويلك؟

قال أخشى أن يغلط بيننا.. فضحك عبد الصمد وأجابه إلى ما سأل!!

***

ابتسم صاحبي وقال : لقد جُلنا اليوم في روضة من رياض الأدب، فهل تعدني بجولة أخرى؟

قلت له : متى ما كان لديك الاستعداد للسماع فاطلبني!!

.....

عبد الرحمن بن أبي عمار :

الناسك العاشق

"عن رواية سلامة القس لعلي أحمد باكثير باختصار وتصرف"

استيقظ عبد الرحمن بن عبد الله بن أبي عمار في الهزيع الأخير من الليل على صوت النداء الأول لصلاة الصبح فنهض من فراشه وفتح النافذة، فشعر بريح باردة فعاد إلى فراشه لينعم بالدفء قليلا لكنه خشي أن تفوته صلاة الفجر، فاستعاذ بالله من الشيطان الرجيم وقام وتوضأ.. سرحتْ به ذاكرته إلى أمه التي كانت تُعنى بصلاته وقيامه فكان ينام قرير العين مطمئنا إلى إيقاظها إياه في الوقت المطلوب، فدعا لها بالرحمة وخرج متوجها إلى المسجد الحرام، وحينما قُضِيَت الصلاة توجّه إلى صديقه الشيخ الجليل أبي الوفاء فسلم عليه ورد الشيخ التحية بأحسن منها.

قال له: يا بني كنت أبحث عنك منذ الأمس. هناك موضوع مهم ليس له غيرك.

قال الفتى عبد الرحمن: سمعا وطاعة يا عمّ.

قال: تعلم يا بنيّ ما لكَ من مكانة لدى أهل مكة لصلاحك وتقواك حتى لقبوك بـ (القس) وعدّوك خليفة عطاء بن أبي رباح، وتعلم أنّ جميلة المغنية قد قدمت من المدينة ونزلت في دار جارنا ابن سهيل وقد شغلتنا بغنائها، فأرى أن تكلم الوالي عسى أن يأمر بإخراجها قبل أن تفسد علينا فتياننا وفتياتنا..

قال عبد الرحمن: أمرك مطاع، وإن كنت لا أرى كبير فائدة من الوالي فطالما كلمته بشأن الشاعر الفاجر عمر بن أبي ربيعة وتعرضه للمحصنات يشبب بهن ويفتري عليهن!!

في هذا الوقت كانت أم الوفاء توقظ جاريتها سلامة حتى إذا يئست منها سحبت منها اللحاف فنهضت الفتاة متثاقلة.. وقالت لمولاتها: آه يا مولاتي.. ليلة البارحة لم أنم إلا قليلا.. كانت دار جارنا ابن سهيل تضج بالغناء والمرح، وكان صوت جميلة يتسرب إلى أذني كما يتسرب الأمل الحلو وكما يهب النسيم العذب وكما يداعب النعاس الأجفان!

قالت العجوز: وهل كنتِ تستمعين إليها؟ لِمَ لمْ تَسُدّي أذنيك وتنامي؟!

***

كانت سلامة جارية من مُوَلّدات المدينة اشتراها أبو الوفاء ولم تتجاوز الثامنة من العمر، وترعرعت في هذا البيت الصالح وأحبتها أم الوفاء وعلمتها سورا من القرآن الكريم، وكانت تعاملها

معاملـة الابنـة لا سيما أن أم الوفـاء لـم يعش لهـا أولاد. ولكـن ابـن سهيل أقام دارا كبيرة بجوار دار أبي الوفاء وأصبح يقيم السـهرات كـل ليلـة، يحييهـا كبـار المغنـين والمغنيـات ويحضـرها الوجهـاء والشـعراء فـازداد تعلـق سـلامة وشـغفها بالغنـاء خاصـة أنهـا كانـت فصـيحة اللسـان متوقـدة الـذهن جميلـة الصـوت، فلمـا خرجـت إلـى المرعى بشويهاتها أخذت تستعيد أبيات عمر بن أبـي ربيعـة التـي غنتها جميلة ليلة البارحة:

ليت هندا أنجزتنا ما تعد وشفت أنفسنا مما تجد

حتى إذا وصلت إلى قوله: "كلما قلت متـى ميعادنـا؟" رَدّ فتـى كـان يمشـي متخفيـا خلفهـا: "ضـحكت هنـدٌ وقالـت بعـد غـد"!! فالتفتـت مذعورة خلفها وإذا بِراعٍ شاب يسوق غنيماته.. ابتسم لها وقـال: لله ما أجمل صوتك يا جاريةً!! هذا غناء جميلة من أين أخذتِه؟!

عرّفته بنفسها وعرفها بنفسه. قال: أنا حكيم الراعـي، أحفظ الكثير من ألحان المغنين والمغنيات لا سيما جميلة!!

فرحت سلامة لهذه المصادفة العجيبة وجلسـا يترنمـان.. ثـم عـرض عليهـا الفتـى أن يعلمهـا كل يـوم لحنـا حتـى تحفظـه علـى أن تكـون أجرتـه قبلـة أو قبلتـين عـن كـل لحـن.. تمنعـت الفتـاة ولكـن ولعهـا بالغناء اضطرها لأن تقبل شرطه!!

تكررت اللقاءات بينهما وحفظت العديد من الألحـان ، وعـادت ذات يوم بشويهاتها ودخلـت دار مولاتهـا وهـي تغنـي، وأطـلّ أبـو الوفـاء

من الطابق الأعلى مذعورا وثارت ثائرته وأخذ يضرب بعصاه الأرض وينادي أم الوفاء التي صعدت إليه مسرعة، فقال لها بلغة حازمة: لقد أتعبتْنا هذه الجارية.. والله لأبيعنّها ولو بدرهم.. لقد بعث إليّ ابن سهيل يرغب في شرائها ويعطي فيها ثمنا كبيرا، ولولا معرفتي أنه إنما يريد أن يتخذها مغنية لبعته..

قالت أم الوفاء: وما عليك إذا بعتها أن يفعل بها ما يشاء..

قال: لا. أخشى أن أعينه على المعصية..

***

شاخ أبو الوفاء وتوحّد بعد انتقال سلامة إلى بيت مولاها الجديد ابن سهيل ووفاة زوجه، وظل عبد الرحمن وفيا لهذا الشيخ يزوره بشكل دائم.. وأما سلامة فقد تبدلت حياتها وتغيرت فوجدت البيئة الصالحة لتنمية مواهبها وتعلمت الكتابة وحذقت فنون الشعر والعزف على آلة العود وسواها من آلات الطرب، وشغف بها مولاها شغفا شديدا، وكانت تحيي مجالس الغناء في داره وسط الطبقات المختلفة من الشعراء والمغنين ومحبي الشعر والغناء..

خرج عبد الرحمن بن أبي عمار من بيت أبي الوفاء بعد زيارته في ضحى أحد الأيام، ومشى بجانب سور قصر ابن سهيل فسمع مغنية تردد:

إذا وجدتُ أُوارَ الحبِّ في كبدي ذهبتُ نحو سقاء الماء أبْتَرِدُ

هبني بردت ببرد الماء ظاهره فَمَنْ لنارٍ على الأحشاء تَتّقِد

وإذا برعدة تسري في مفاصله، وإذا به يتثاقل في مشيته وهو يقول: عجبا ما أشبه هذا الصوت بجارية أبي الوفاء!! وبينما هو كذلك إذ بابن سهيل على الباب وقد خرج ليتفقد أضيافا له قادمين فأبصر عبد الرحمن وعرفه فاستوقفه قائلا: مهلا يا ابن أبي عمار!! ألا تُسلّم علينا؟

خجل عبد الرحمن وسلم فرد ابن سهيل بحفاوة بالغة. وقال له: من أين قدمت؟

قال: من عند أبي الوفاء.. كنت عنده أعوده..

قال ابن سهيل: عجّلَ الله له بالشفاء. لولا خشيتي أن يضيق بي لعدته.. والله إني لأحبه بقدر ما يبغضني!! لقد قصدتُ أن أبني هذه المقصورة في أقصى الحديقة بعيدا عن داره حتى لا تصل إليه أصوات الغناء فيتأذّى منها..

قال عبد الرحمن: لقد أحسنت يا ابن سهيل إلى جارك وليتك تحسن إلى نفسك فتقلع عن اللهو والغناء..

وتهيأ عبد الرحمن للمشي فقال ابن سهيل: إلى أين يا ابن أبي عمار؟

فأجابه: إلى المسجد..

قال ابن سهيل: ليس الآن.. لم يحن وقت الظهر بعد، وعندي فحول الشعر يتساجلون وستسمع من جاريتي سلامة غناء لم تسمعه في حياتك..

قال عبد الرحمن وهو يهمّ بالمشي: ولن أسمعه إن شاء الله!!

ولم يكد عبد الرحمن يتمّ كلمته حتى ظهر عمر بن أبي ربيعة فقال ابن سهيل وهو يبتسم: ها هو شاعر قريش! فتجهّم وجه عبدالرحمن وقال: تبًّا له من فاجر!!

ولما دنا منهما قال عمر: السلام عليكم..

فأجاب ابن سهيل باشّا: وعليك السلام يا عمر.. فأين بقية القوم؟

قال: هم أولاء على أثري! ونظر عمر إلى عبد الرحمن وقال: أهلا يا ابن أبي عمار.. أجئت لتشكونا إلى الوالي كما فعلت من قبل؟!

ضاق عبد الرحمن ذرعا ولكنه لم يكد يخطو منصرفا حتى وصل بقية القوم: الشاعران: الأحوص والعرجي، والمغنيان: الغريض ومعبد، فلم يتمكن عبد الرحمن من الانصراف قبل أن يستمع إلى لمزهم وغمزهم فيه، فقال: سامحك الله يا ابن سهيل.. أخرتني عن المسجد وآذيتني بجماعتك هؤلاء!! وانصرف مسرعا..

ظل ابن سهيل يترقب مرور ابن أبي عمار في طريقه إلى بيت أبي الوفاء ليدعوه إلى داره ويعتذر له عما بدر منه ومن أصحابه في

حقـه، وأوصـى سـلامة كـذلك أن تترقبـه حتـى إذا لمحتـه أخبـرت مولاها بمقدمه!!

جاء ابن أبي عمار يعود صديقه أبا الوفاء ولم يكد يقترب من سور ابن سهيل حتى سمع الصوت نفسه، فعرفه وارتاحت نفسه إليه:

تُنِيلُ نزرا قليلا وهي مشفقة
كما يخاف مسيس الحية الفرقُ

لا أعتقَ الله رقّي من صبابتكم
ما ضَرّني أنني صبٌّ بكم قَلِق

فتمهل عبد الرحمن في خطوه ولم يعلم أن ابن سهيل كان قد لحظه من الدار عن بعد، فأوعز إلى سلامة أن تغني بهذه الأبيات فاشتد عجبه لما رأى هذا الناسك يتمهل في خطوه ويتصنت للغناء، فَأُخِذ عبد الرحمن بالصوت ووقف في محاذاة الدار فخرج إليه ابن سهيل ففاجأه على حاله هذه، فاضطرب عبد الرحمن وتظاهر بالسير، ولكن ابن سهيل استوقفه قائلا: لقد رأيتك تستمع إلى الغناء فهل لك أن تدخل فتسمع؟!

قال: لا. كلا فإني ذاهب إلى أبي الوفاء..

قال: ادخل الآن واستمع ثم اذهب إلى أبي الوفاء.

قال عبد الرحمن: أعفني يا ابن سهيل.

قال: لا والله لا أعفينّك.. والله لتدخلن فتسمع..

قال: معاذ الله أن أستمع إلى مغنية!!

قال ابن سهيل بلهجة حازمة: والله لتدخلنّ أو لأخرجنّها لك!!

رأى عبد الرحمن أن لا فائدة من التمنّع، ودخل الرجلان من باب السور المفضي إلى الحديقة ومرّا بأشجار النخيل والسدر والليمون إلى أن وصلا إلى المقصورة المعدة للجلوس والغناء. وتردد عبدالرحمن لما رأى مظاهر الترف التي لم يرها في حياته ولا تطمئن إليها نفسه الزاهدة!! ولكن صاحب الدار قضى على تردده بترحيبه البالغ وبشره الطافح فأجلسه في صدر المجلس، وكانت سلامة تنظر إلى الضيف الكريم من شباك الدار فرأت شابا في نحو الخامسة والعشرين معتدل القامة عريض الأكتاف قليل اللحم أبيض الوجه في سمرة تزينه لحية سوداء لا هي بالخفيفة ولا الكثيفة..

دخل غلام أسود يحمل خوانا صغيرا فأشار إليه مولاه فوضعه أمام الضيف، وأقبلت جارية بأطباق الشواء والحلوى والعنب والعسل فصففتها على الخوان..

خرج ابن سهيل إلى سلامة وهي خارج المجلس تغالب نفسها من الضحك فقال لها: اجتهدي يا حبيبتي في صنعتك فإني لا أريد القس ينصرف إلا متبول القلب!!

فهزت رأسها بالموافقة وغنت :

ومـا هــي إلا أن أراهـــا فُجــاءة
فأُبهتُ حتــى ما أكـاد أجيـب

وأصرف عن رأيي الذي كنت أرتئي
وأنسى الذي أعددت حين تغيب

ويُظهِــر قلبـي عـذرهـا ويعينـها
عليّ فمالي فــي الفؤاد نصــيب

فطرب ابن سهيل طربا شديدا، ونظر إلى عبد الرحمن فألفاه ساكن الأطـراف شـاخص البصـر، صـدره يرتفـع ويـنخفض، وشـفتاه تختلجان، ويده اليمنى قد نسيها في طبق العنب من الذهول!!

أشار ابن سهيل إلى سلامة أن حسبك!! والتفت إلى صديقه قائلا: هل أعجبك الغناء يا ابن أبي عمار؟

وشعر عبد الرحمن كأنما أفاق من حلم وقال: أجل والله لقد هز مشاعري!!

عندها أشار ابن سهيل إلى سلامة فدخلت، وانبهر عبد الرحمن فجعل ينظر إليها مذهولا زائغ البصر والتقت عيناه بعينيها، فإذا هما غزلتان غضيضتان وعلى خديها غمازتان تغوران كلما ابتسمت ولها شفتان أرجوانيتان، فأشار إليها سيدها فاحتضنت عودها وتغنت، ولم يلبث عبد الرحمن أن بكى من التأثر، ورفع إلى سلامة عينين دامعتين وقال: أحسنتِ يا سلامة!!

واستأذن عبد الرحمن. قال له ابن سهيل: لا آذن لك إلا أن تعطيني موثقا أن تزورنا من حين لحين، فوعده عبد الرحمن وخرج معه مودعا!!

***

كان ذلك اليوم فاصلا في حياة القس. أصبح بعده لا يفكر إلا في سلامة، ولا يجد الأنس إلا في مجلسها، وكثر اختلافه على ابن سهيل فنشأت بينهما صداقة متينة، وشغف عبد الرحمن بسلامة فكان يحلم بها ويتسلل طيفها إليه حتى في صلاته وقيامه، وحَلِيت الحياة في عينه وأصبح يجد لها معاني لم تخطر له من قبل على بال. وأصبح كثير التسامح مع الناس والتماس الأعذار لهم، وتفتّح قلبه للشعر بعد ما كان يزدريه ويعدّه لهوا لا يليق بالمتقين!! واشتهر بمكة حديث القس وسلامة، فكثرت فيهما الأقاويل فاعتزل الناس وانقطع عن أبي الوفاء فأصبح لا يزوره إلا لماما لأنه لا يدري بأي وجه يلقاه!!

ووصلت أخبار القس إلى مسامع الشيخ أبي الوفاء لكنه لم يصدق، أو لعله لم يرد أن يصدق.. وبينما عبد الرحمن في زيارة لشيخه يسأله عن أحواله إذ مرت جارية في الشارع وهي تغني:

الآن فليُعْلنْ من شاء تهيامه

قد وقع القس في حب سلامه

فغضب أبو الوفاء وقال: ويلٌ لابنة الفاعلة.. ما هذا البهتان؟ لا بد أن نشكوها إلى الوالي!!

فاستجمع عبد الرحمن قواه وقال: بل دعها، فهي أبيات سائرة في أفواه الجواري والغلمان في أزقة مكة وشوارعها.. إنه ليس ببهتان!!

قال الشيخ: معاذ الله أن يقع منك هذا يا ابن أبي عمار!!

فغلب عبد الرحمن البكاء، وقال بصوت تخنقه العبرة: لقد وقع يا أبا الوفاء ولا حيلة لي فيه..

***

علم عبد الرحمن أن سلامة تضمر له مثل ما يضمر لها من الحب. عرف ذلك من نظرات عينيها وفلتات حديثها وخفوفها للقائه ونشاطها عند حضوره ووجومها حين انصرافه. ولكن ما قيمة هذا كله وهو لا ينوي ريبة ولا يريدها إلا حلالا.

وهل تدور الريبة قط بخلده وهو من هو في تقاه وورعه وفقهه ودينه وخوفه من الله وشدة محاسبته لنفسه. وبمن يقترف الريبة؟ أبتلك التي وهبها قلبه وأحب الحياة من أجلها وعرف جمال الكون لما عرفها؟

ومن يخون فيها؟ أذلك الصديق الكريم الذي أحبه وأعزه وائتمنه على حرمته ووثق بدينه؟

لقد هدأت تلك الحرب المستعرة بين نفسه التقية الزاهدة ونفسه المقبلة على الحب والحياة، ولكن سرعان ما قامت حرب أخرى لا تقل هولا. إنها الحرب بين شغفه بسلامة ورغبته في الحصول عليها عن طريق الحلال، وبين شعوره بالعقبات التي تقف دون ذلك، فهو يعلم أن ابن سهيل يحب جاريته ويؤثرها على كل ما يملك في الحياة ويفضل سماعها على كل نعيم وكل متعة من متع العيش فلا يعقل أن يبيعها لأحد ولو أُعطي فيها أضعاف ثمنها. وهَبْه رضي أن يبيعها فما الذي يملكه عبد الرحمن سوى ضيعته التي ورثها عن والده والتي يعتاش منها؟!

***

بكّر عبد الرحمن إلى مجلس ابن سهيل فلما استقر في المجلس فاجأه ابن سهيل بعرض لم يخطر له على بال!! عرض عليه أن يهبه جاريته الأثيرة لديه هبة خالصة تقديرا لصداقتهما، وللحب الذي تمكن من قلبي عبد الرحمن وسلامة والذي لم يعد يخفى على أحد فكيف يخفى على ابن سهيل؟! وأبى عبد الرحمن قبول العرض لا سيما بعد ما انتهى إليه سرا من وقوع ابن سهيل في الضيق وكثرة الديون عليه من جراء جوده وإسرافه، لكن ذلك قوّى في نفسه الأمل في الحصول على سلامة بطريقة أخرى فاعتزم في نفسه أمرا.

ظلّ كل من المضيف وضيفه في حالة من الذهول سببتها لهما صدمة المفاجأة.. عبد الرحمن يكاد لا يصدق هذا العرض السخي.. ويكاد لا يجد سببا يدفع ابن سهيل إلى تقديمه؟ ولِمَ لا يعرض بيعها

عليه خاصة أنه في مأزق مالي؟! وابن سهيل يتعجب من هذا العاشق الذي تُقدم له معشوقته هدية خالصة فلا يقبل العرض مخافة أن يرزأ صديقه في ماله!! لله ما أكرمهما من صديقين وما أوفاهما!!.. لم يخرج الاثنان من ذهولهما إلا حين اتخذت سلامة مجلسها..

فقال ابن سهيل: لقد أعجبتني أبياتك التي قلتَها في سلامة. إنك لشاعر يا عبد الرحمن!!

فخجل عبد الرحمن والتفت إلى سلامة معاتبا: ألم تعديني ألا تنشدي هذه الأبيات؟!

قالت: أتخشى أن يغار مولاي؟! إن مولاي لا يغار ممن يشبّب بجاريته، بل يسره أن يسمع شعرا رائعا كشعرك!!

قال ابن سهيل: أجل يا سلامة.. أسمعينا أبيات القس.. فأخذت عودها وغنت:

سلاّم هل لي منكم ناصر؟
وهل لقلبي عنكم زاجر؟

قد سمع الناس بحبي لكم
فمنهم اللائم والعاذر!

فقفز ابن سهيل وقبّل عبد الرحمن وقال له: إني لك من العاذرين!!

واستمرت:

قالوا أحب القس سلامة
وهو التقي الناسك الطاهر

كأني لم يدر قبلي الهوى
إلا الغوي الفاتك الفاجر

فظهر التأثر الشديد على عبد الرحمن حتى إذا بلغت قوله:

يا قوم إني بشـر مثلكـم
وفاطـري ربكـم الفاطـر

لي كبـد تهفـو كأكبادكم
ولي فـؤاد مثلكـم شـاعر

طفـق عبـد الـرحمن يبكـي. قـال ابـن سـهيل: أعيـدي يـا سـلامة، فأعادت..

قال عبد الرحمن: حسبك يا سلامة حسبك!!

وبينما هم كذلك إذ دخل غلام ابن سهيل وقال له: بالباب رسول القاضي!!

فانطلق ابن سهيل إليه فقال له الرسول: أجب مولانا القاضي!!

قال: اذهب وسألحق بك.

قال: لا.. فقد كلفني بإحضارك فورا..

قال: حسنا سأرتدي عباءتي.

فهَمّ عبد الرحمن بالقيام، فحلف عليه أن يجلس مع سلامة حتى يعود..

وخلا المجلس لسلامة وعبد الرحمن وساد الصمت ووضعت العود من يدها ونظرت إلى عبد الرحمن فقالت له: ألم تصنع شعرا آخر؟

قال: لا

قالت: لا أصدّقك..

فأخرج من جيبه قرطاسا ودفعه إليها.. وضعت القرطاس أمامها واستلت عودها وما زالت تدندن إلى أن رفعت صوتها:

علامَ سلبتِ يا سلاّم قلبي
فعاف الرشد واستحلى الضلالا

وقبلكِ ما عرفتُ سوى صلاتي
ولم ينل الهوى مني منالا

سمعتك فاجتواني نصف عقلي
فلما لحت لي ارتحل ارتحالا

عذيري الله من بصري وسمعي
فقـد كـانا علـــى قلبـــي وبـالا

دعيني أستقيلك بعـض لـبـــي
ولب المرء أفضـل ما استقالا

أهابك أن أقــول بذلت نفسـي
ولو أني أطـعـت القلـب قالا

حياء منك حتى ذاب جسـمي
وشـق عـليّ كتمانـي وطـالا

ووضـعت العـود من يـدها ونظـرت إلـى وجـه عبـد الـرحمن نظـرة تائهة بها كل معاني الاستسلام والغزل، وقد تورد خداها فنظر إليها فخفضت طرفها، وقالت: يا ابن أبي عمار والله إني أحبك.

فقال - ووجهه إلى الأرض - : وأنا والله يا سلامة أحبك.

قالت: وأحبُّ أن أضع فمي على فمك.

فقال لها: وأنا والله أحب ذلك.

فقالت سلامة وقد دنت منه: إذن فما يمنعك والموضع خال؟!

فذُهِل عبد الرحمن وانـتفض فجـأة ونظـر إليهـا وقـال: أنسيت الله يـا سلامة؟! لا يا حبيبتي..

عادت سلامة إلى مقعدها وطفقت تبكي وقالت: عسى ألا تكون ساخطا علي.

قال والبكاء يخنقه: لا والله يا حبيبتي أنا راض عنك ولكن اصبري حتى يجعل الله لنا مخرجا.. لقد حدثتني نفسي أن أبيع ضيعة لي بالوادي ورثتها عن أبي فأشتريك بثمنها فأعتقك وأتزوجك..

***

عاد عبد الرحمن إلى دار ابن سهيل بعد انقطاع لعدة أيام فاستقبله بكل حفاوة وقال له: أين كنت يا رجل؟!

قال: ذهبت لأبيع ضيعتي..

فعجب ابن سهيل ولم يفهم ما الذي حمله على بيع ضيعته التي يعتاش منها.

قال عبد الرحمن والخجل يعقد لسانه: وهذا ثمنها .. هل تبيعني سلامة يا ابن سهيل؟!

قال: كيف يا عبد الرحمن؟ ألم أهبها لك ورفضت؟!

قال: نعم. لكني لم أشأ أن أرزأك في مالك.

قال ابن سهيل: ولكنها بيعت بالأمس لرجل من أهل المدينة من آل رمانة وسيتسلمها عشية غد!!

قال ابن أبي عمار - وقد أغضبه ما سمع - : أفعلتها يا ابن سهيل؟!

قال ابن سهيل: لست أنا الذي باعها.. باعها القاضي.. لعلك لم تعلم أنهم حجروا علي حجر تفليس.

قال: أولا تكلم القاضي ليبيعها لي بدلا من ابن رمانة؟

قال ابن سهيل: لا أحسب الرجل المدني يتنازل عنها، فهو من عشاق الغناء وقد سمع أنها تجيده فدفع فيها تسعمائة دينار!! ليتك يا عبد الرحمن قبلتها مني هدية!!

***

قدمت سلامة المدينة واحتواها قصر ابن رمانة، ولقيت منه كل عناية وسلمها إلى جميلة أشهر مغنيات المدينة، إذ كان ابن رمانة تاجر قيان يشتريهن بدراهم معدودة فيعلمهن الغناء حتى إذا برعن فيه باعهن بأغلى الأثمان .. أما ابن سهيل فاستقبل حياة الفقر بعد الغنى والشدة بعد الرخاء، وأما عبد الرحمن فكأنما أحس أنه يعيش غريبا في هذه الدنيا فقد كانت سلامة هي الدنيا عنده وقد رحلت، فنزل إلى السوق يعمل فيه بجد ليس بعده جد مستفيدا من ثمن ضيعته وقد عقد العزم على أن يجمع من المال ما يستطيع به شراء فاتنته من مولاها الجديد بأي ثمن..

بعد مرور عام ونصف من العمل الجاد جمع من المال ما ظن أنه يكفي لشراء سلامة ورحل مع صديقه ابن سهيل إلى المدينة، ولما وصلاها وقفا على دار ابن أبي عتيق وكان كهلا حسن الهيئة، وما

إن رأى ابن سهيل حتى اندفع إليه معانقا، ثم صافح عبد الرحمن وقال: من هذا الشريف الذي معك؟

قال: هذا صديقي ابن أبي عمار..

قال ابن أبي عتيق: القسّ ؟! أهلا بكما.. هلُمّا إلى منزلي.. لعلكما تريدان أن تريا سلامة؟!

قال ابن سهيل: هو ذاك!!

قال المضيف: عصر اليوم يعقد مجلس في دار ابن رمانة تغني فيه سلامة يحضره من يشاء من أهل المدينة ليشتهر أمرها فيبيعها لمن يغلي له الثمن.. كأني بك جئت تستردها يا ابن سهيل؟!

فأجابه: هذا ما جئنا من أجله.. لكننا لا نريد أحدا يعلم بمجيئنا..

قال: لك ذاك!!

وصل الثلاثة عصرا إلى دار ابن رمانة التي كانت غاصّة بالجمهور من الجنسين، كل منهما في جانب، واندس الثلاثة في وسط الحضور حتى لا يلفتوا انتباه أحد، وبدت سلامة على المنصة تغني وصلتها الأولى:

فيا راكبا إما بلغت لطيبة
وضمك واديها الأغر المنور

فخذ ربوة واقرأ تحية عاشــق
لـه في مغانيها من الأنس جؤذر

فهمس ابن سهيل لعبد الرحمن: إنها أبياتك يا قس!!

قال عبد الرحمن: بأبي هي وأمي!!

واستمرت في الغناء:

أقـول لقلبـي كـلـما زاد خـفقه:
إلام يعنـّيكَ الأســـى والتذكّر

تصبّر، فصاح القلب: هبني احتملته
بصبر فما يجدي علي التصبُّر

وغلـب عبـد الـرحمن الوجـد حتـى كـاد يغشـى عليـه، وقـال لـه ابـن سهيل: تشدّدْ يا عبد الرحمن ولا تفضحنا بين الناس!! ولـم يقوَ عبـد الـرحمن علـى احتمـال مـا بـه، فشـهق شـهقة لفتـت انتبـاه النـاس إليـه وأخذ يبكي ويترنح، فلما غنت سلامة:

خُذًا الزاد يا عينيّ من نور وجهها
فما لكما فيه سوى اليوم منظر

استوى على ركبتيه وظل يحدق فـي عينـي سـلامة، فلحظتـه سـلامة وعرفت ابن سهيل إلى جانبه، والتقت عيناهمـا فوقـع عبـد الـرحمن مغشيا عليه وقامت مسرعة من كرسيها ودخلت الدار!!

قال ابن سهيل: أعنِّي يا ابن أبي عتيق لنحمله إلى المنزل..

اضطرب المجلس وسأل الناس بعضهم بعضا وارتفع اللغط وعرف الناس أن هذا المغشي عليه هو سلامة القس، وقَدِم إليهم صاحب الدار وسلم عليهم وأبى إلا أن يحمل المصاب إلى داخل داره، فحملوه إلى حجرة كبيرة ووضعوه على سرير أُعِدّ له وقامت سلامة ترش على وجهه ماء الورد، بينما وقف ابن رمانة في ركن من الغرفة يتحدث إلى ابن سهيل وابن أبي عتيق بصوت خفيض ويعلن عن أسفه لأن سلامة قد أصبحت في ملك يزيد بن عبد الملك وأن رسله سيحملونها وشيكا إليه، وكانت سلامة تسمع ما يدور بينهم من حديث والدمع يتساقط من عينيها.

انتبه القس من غيبوبته ورأى سلامة فوق رأسه فقال بصوت مرتعش: سلامة؟!

فأجابت: نعم يا عبد الرحمن ها هي أمامك..

والتفت إلى ابن سهيل وقال له: هل كَلّمْتَ مولاها في أمرها؟

فلم يجبه بشيء ورأى سلامة تبكي. قال: وما يبكيك يا سلامة؟!

فلم تجبه بغير البكاء فصاح عبد الرحمن: أخبروني ما ذا حدث؟ فتولّى ابن أبي عتيق الشرح: إن سلامة بيعت إلى يزيد بن عبدالملك!!

فقال عبد الرحمن: لا يا ابن رمانة لا تبعها إلى يزيد!!

قال ابن سهيل: إن الخليفة قد دفع فيها عشرين ألف دينار وليس معنا إلا ألف وثمانمائة دينار!!

قال عبد الرحمن: أمهلني يا ابن رمانة سآتيك بأكثر من عشرين ألف دينار!!

فأجابه ابن رمانة: إنها خرجت من ملكي إلى ملك الخليفة.

.***

رحمك الله يا عبد الرحمن.. لو التقيت بك - ولم أعرف مقدار ما لديك من عزة النفس - لاقترحت عليك أن تنظم قصيدة تمدح بها الخليفة وتعرض عليه حكايتك مع سلامة ولن يتردد في منحك إياها، ولا تخشَ أن ترزأه في ماله كما خشيتَ أن ترزأ ابن سهيل!!

***

يزيد بن الطَّثْرِيّة :

شاعر قتلته أناقته

<u>حوار أجراه حنظلة التميمي لجريدة وادي حنيفة:</u>

في حي من أحياء اليمامة وسط نجد وجدتُه يستظل تحت شجرة سدرة.. عرفته من لمته المرجّلة بعناية والمدهونة بأفخر الدهون، وبجُبّته المصنوعة من الخز التي لا تفارقه أبدا.. عرفته بأناقته ووسامته.. إنه "يزيد بن الطثرية" شاعر من شعراء هذا العصر الأموي.. سلمت عليه، ورد السلام بأحسن منه.. عرفته بنفسي وبالصحيفة التي أعمل فيها وبرغبتي في إجراء لقاء معه.. رحب بي وحلف عليّ إلا أن ننتقل إلى الخباء الخاص به.. وإليكم نص الحوار:

****

- اختلف الناس في نسبك، فمرّة يقولون إنك من تميم ومرة من عامر بن صعصعة، ومنهم من يقول إنك من بني قشير.. هل لك أن تزيل عنا هذا اللبس؟

= أنا يزيد بن سلمة القشيري، من بني قشير.

- تنسب الى أمك الطثرية أكثر من أبيك، فلِمَ؟ وما سبب تسميتها بالطثرية؟

= كثيرون نسبوا إلى أمهاتهم قديما وحديثا، وخاصة إذا غلبت شهرة الأم، ولا عيب في ذلك.. هذا إبراهيم بن هرمة وخفاف بن ندبة، حتى معاوية بن أبي سفيان - مؤسس دولتنا - ينسب كثيرا إلى أمه هند.. أما تسمية أمي بالطثرية فلأنها من بني طثر..

- سمعت أنها سميت بذلك لأنها ولدت في عام كثر فيه طثر اللبن - أي زبده - أو لأنها كانت تعنى باستخراج طثر اللبن؟!

= (يضحك) يا أخي الناس يريدون اختلاق الحكايات.. أخوالي بنو طثر وهذا كاف..

- هل لي أن أعرف برنامجك اليومي؟

= في أيام السلم - أدام الله علينا عز خليفتنا الوليد بن يزيد - لا عمل لي إلا التجوال بين أحياء العرب والتصدي للنساء.. أجلس مع أولئك وأحادث هؤلاء وهكذا..

- ولكن قبيلتكم بني قشير معروف عنها أنها قبيلة محافظة ولا ترضى بهذا السلوك؟

= صحيح.. لكنك تعرف أننا ينزل علينا كثير من القبائل الأخرى، وهم إما متسامحون أو غافلون.. وأنا لا أسيء إلى أي منهن ولا

أرضى لهن الإساءة.. أنا أكتفي بالحديث والتسلية لي ولهن.. هن يرغبن في ذلك أيضا!!

- ذكرتني بهذا السلوك برفيقك عمر بن أبي ربيعة؟

= عمر حضري يعيش في الحجاز وهو - أصلحه الله - أكثر ما يتعرض لقاصدات بيت الله، أما أنا فأتقصد فتيات البادية.

- مثل جميل بن معمر؟

= جميل بثينة بدوي مثلي لكنه قصر حبه وغزله على بثينة وهو حب عفيف.. أنا أيضا لي محبوبة واحدة هي"وحشية الجرمية" ولكن هذا لا يمنع أن أتسلى بالجلوس والحديث مع غيرها!!

- ألم تتعرض لموقف حرج بسبب ملاحقتك للنساء؟

= بلى.. أول ما عرفت وحشية شّببّت بها، فطلب أهلها من أخي ثور - وهو رجل له مكانته بين القبائل - أن يعاقبني بما يراه رادعا لي.. أتدري بم عاقبني؟! بأعَزّ ما لدي!! حلق لِمّتي.. وقد حزنت عليها حزنا شديدا لأني كنت - وما زلت - أعتني بها عناية فائقة لدرجة أنني كنت أتعامل مع أحد العطارين في اليمامة لدهنها وتطييبها.

- وهل استمرت علاقتك بوحشية بعد ذلك؟

= نعم.. وقد علم أهلها بأنها تبادلني الحب فضيقوا عليها حتى إنهم أحرقوا رجلها بالنار حتى لا تستطيع السير إلي، وقد قلت معيرا إياهم بذلك:

خبرتهمْ عذبوا بالنار جارتهم ومن يعذب غير الله بالنار؟

- أعرف أنك رجل كريم متلاف للمال يغشاك الدين دائما، فمن يساعدك في إنفاقك ويسدد ديونك؟

= أخي ثور - أطال الله عمره وزاده من فضله - فهو صاحب مال ونخل ورقيق ولا يرد لي طلبا، خاصة إذا كنت في شدة من أمري..

- هل لنا بموقف أسعفك فيه أخوك ثور؟

= المواقف التي أسعفني فيها كثيرة، لكني أذكر موقفا عنّفني فيه لأني تصرفت بماله دون إذنه.. مررت بخباء فيه نسوة، فلما رأيتني قلن: يا يزيد أطعمنا لحما!! فطلبت منهن سكينا ونحرت ناقة كانت معي من إبل أخي ثور، ولما علم ثور غضب علي غضبا شديدا..

- هذه القصة ذكرتني بامرىء القيس حين نحر ناقته لضيفاته؟

= النساء لا يختلفن في كل عصر.. والكرم فينا - نحن العرب - عادة متأصلة، فكيف إذا كان الضيوف من الجميلات؟!

- يزيد.. ما فلسفتك في الحب؟ وما نظرتك للمرأة؟

= كل امرأة خُلِقَتْ للحب، ويجب أن تترك لتحب من أرادت، ويجب أن تُخفّف عنها الرقابة، فمبادلة الهوى مع فتيان الحي شيء جميل:

فيا أيها الواشون بالغش بيننا فرادى ومثنى من عدو وعاذل

دعوهن يتبعن الهوى وتبادلوا بنا .. ليس بأس بيننا بالتبادل

وإنْ تدخل واشٍ بين المحبين فعلى المحبوبة أن تكون صارمة في وجهه، لا تصدقه ولا تخافه، وتبقى على حبها حتى لو نأت دارها:

وكوني على الواشين لداءَ شغبةً كما أنا للواشي ألدُّ وأشغبُ

- على جرأتك الشديدة في مخالطة النساء إلا أنك أحيانا لا تصرح باسم الحبيب وكأنك تخشى أحدا.. مثل قولك:

بنفسي من لا أخبر الناس باسمه وإنْ حملتْ حقدا علي عشائره

= أنا لا أخاف على نفسي.. أنا أخشى الإساءة إلى المحبوبة من أهلها أو من الأعادي..

- عُرِفَ عنك نجدة المحتاج، ولكنك لا تعين إلا العشاق أمثالك!!

= النجدة من صفات العرب، ولكن نظرا لأن أكثر أصحابي هم على شاكلتي - أي من العشاق - فقد حفظ الناس لي مواقف من هذا

النوع، فقد كان لي صديق أُخِذت جارية من قومه مع إبلهم فشكا إليَّ مدى حبه لها ولوعته لفراقها، فعملت خطة محكمة لاختطافها من الذين أخذوها، ورددتها إلى صاحبي وأعطيته ناقتي ليهرب عليها، وقلت له: لا تبيتن إلا خارج حدود بني قشير وإلا فانك لن تنجو..

- ما قصة هربك من الذين لحقوا بك؟ كيف وأنت المعروف بالشجاعة؟!

= واجهني أعداء لي وكنت وحيدا على ناقتي فقررت الهرب، ولكن ناقتي لم تسعفني، وكنت أثق في رجلي أكثر من راحلتي فنزلت منها وسَبَقْتُهُم عَدْوا..

- ما الشعور الذي انتابك وأنت تهرب؟ ألم تخشَ الفضيحة؟!

= لم أفكر إلا في صويحباتي.. خشيت أن أفقد إحداهن بسبب هذا الموقف.. ليس أصعب على الفتى من أن تكرهه امرأة!!

ومن يعلق البيضَ الكواعبَ قلبُه ويبغضنه يدعى الشقي المعذّبا

- شاعرنا الأنيق: السؤال التقليدي: ما أجمل ما قلت؟

= بل هو السؤال الصعب وليس التقليدي.. من الصعب أن أحكم على شعري، فأكثره قلته في مواقف ومناسبات معينة، لكن إذا سمعتُ أن شاعرا نسب أبياتي إليه، أو راويا نسبها إلى شاعر آخر

عرفت أنها من شعري الجيد، أو إذا أنشدها مُغَنٍّ فقد غنى لي ابن الصياد المدني هذه الأبيات:

بنفسي من لو مر برد بنانه على كبدي كانت شفاء أناملـه

ومن هابني في كل شيء وهبته فلا هو يعطيني ولا أنا سائلـه

وقولي الذي ينسب إلى المجنون - مجنون بني عامر - :

أتاني هواها قبل أن أعرف الهوى فصادف قلبا خاليا فتمكنا

وفي رأيي أن أجمل ما قلت قصيدتي العينية التي منها:

حننتَ إلى ريا ونفسك باعدت مزارك من ريا وشعباكما معا

فما حسنٌ أن تأتي الأمر طائعا وتجزع إن داعي الصبابة أسمعا

بكت عيني اليمنى فلما زجرتها عن الجهل بعد الحلم أسبلتا معا

وهذه تنسب إلى قيس بن الملوح، وإلى المجنون، وإلى الصّمة القشيري..

- كأنك لا تتضايق من نسبة شعرك إلى الآخرين؟!

= (تبسّم) الحقيقة أنا الذي أعطيتهم الضوء الأخضر.. لقد قلت يوما ما لجمع من فتيان الحي متباهيا بشعري وقدرته على التأثير على قلوب النساء: "من أفحم عند النساء فلينشد من شعري"!..

- أردت أن أسألك عن قصيدتك "ألا يا صبا نجد" لم تعدها من محاسن شعرك؟

= لقد نسيتُها.. هي جميلة فعلا، لكن أكثر من يحبها أهل نجد، أو من لهم ذكرى بنجد.. (أخذ نفسا عميقا وأخذ يُنشد):

ألا يا صبا نجد متى هجت من نجد
فهيّج لي مسراك وجدا على وجد

أإن هتفت ورقاء في رونق الضحى
على فنن غض النبات من الرند

بكيت كما يبكي الحزين صبابة
وذُبْتُ من الحزن المبرح والجهد

وقد زعموا أن المحب إذا دنا
يُمَلُّ وأن النأي يشفي من الوجد

بكل تداوينا فلم يشف ما بنا
على أن قرب الدار خير من البعد

تذكرتُ ذات الخال من فرط حبها
ضحًى والقلاص اليعملات بنا تخدي

فما ملكت عيناي حين ذكرتها
دموعهما حتى انحدرن على خدي

فأَنّبني صحبي وقالوا أمِنْ هوى
بكيتَ ؟ ولو كانوا همُ وجدوا وجدي

وقالـــــوا لقــد كنـا نعدك مـرّة
جليــدا وما هــذا بفعل فتى جلد

ألا لا تلوماني فلســت وإن نأت
بمنصـــرم عنـــها هـواي ولا وُدِّي

ألم تعـــلما أن الرعابيب لم تزل
مفاتيــن قبلي للكهـــول وللمُرْد

***

قلت له وأنا ألملم أوراقي إيذانا بالرحيل:

في ديارنا فتى ندي الصوت يسمى "عوض الدوخي" سأعطيه هذه الأبيات ليغنيها..

قال لي: لك ذاك..

تـأخر نشـر هـذه المقابلـة لعدة أيـام بسـبب انشـغال الصـحف آنـذاك بتغطية أخبار ثورة الشعب على الخليفة الوليد بن يزيد.. في صباح يـوم الجمعـة 126/6/29هـ فتحت الجريـدة بحثـا عن لقـائي الـذي أجريته مع يزيد وإذا بهذا الخبر يتصدر الصفحة الأولـى: "مصـرع الشـاعر يزيـد بـن الطثريـة" وفـي تفاصـيل الخبـر: لقـي الشـاعر

المعروف يزيد بن الطثرية مصرعه أمس الخميس في الاشتباكات القائمة لعدة أيام بين حكومة الوليد بن يزيد والمتمردين من بني حنيفة.. وذكرت وكالات الأنباء أن يزيدا كان يحارب في صف الوليد وعليه جبة الخز التي اشتهر بارتدائها في كل الأوقات، و قد علقت جبته بغصن من أغصان سدرة كان تحتها فسقط على وجهه، مما مكن نفرا من بني حنيفة من الإمساك به وقتله على الفور ..

***

رحمك الله يا يزيد.. لم تترك أناقتك حتى وأنت في ساحة القتال!!

***

أبو دلامة :

المتسوّل الظريف

هو زند بن الجون، عبد أسود حبشي كوفي المنشأ كان مولى لبني أسد. عُرِفَ جنديا في جيش مروان بن محمد - آخر الخلفاء الأمويين - لكن حياته آنذاك كانت مغمورة وجُلُّ أخباره وأشعاره عباسية بحتة. وقد أصبح نديما لأول الخلفاء العباسيين ثم لتالييه المنصور والمهدي لحين وفاته سنة 161هـ مما يدل على أنه لم يكن شديد الولاء إلا لمصلحته! وسنطالع فيما يلي أمثلة واضحة على أن أبا دلامة قد أتقن كل الوسائل التي جعلته نديما للخلفاء ومضحكا للملوك، من أجوبة فورية مسكتة وانتهاز للفرص واستغلال للمواقف مع سرعة بديهة.

عرف أبو دلامة كيف يستغل المواقف للحصول على رضا الخليفة، فحين قتل أبو جعفر المنصور أبا مسلم الخراساني دخل عليه وأنشده قصيدة مدح بها أبا جعفر وذكر قتله أبا مسلم، وفيها يقول:

أبا مسلم خوفتني القتل فانتحى
عليك بما خوفتني الأسد الورد

أبا مسلم ما غَيَّر الله نعمة
على عبده حتى يغيرها العبد

ويقال إن هذا أول شعر عرف له وإن المنصور قال له احتكم.. قال: عشرة آلاف درهم. فلما اختلى به قال له: أما إنك لو تعديتها لقتلتك!

***

ومن أمثلة حظوته التي تمنحه الجرأة على قول ما لا يستطيع غيره هذا البيت من قصيدة يستعجل المهدي جائزة وعده إياها:

أدعوك بالرحم التي هي جمعت
في البعد بين قريبنا والأبعد

قرأ المهدي الأبيات فغضب. وسأله أي قرابة بينهما؟!

قال له أبو دلامة بكل برود: رحم آدم وحواء. أنسيتهما يا أمير المؤمنين؟!

فضحك الخليفة و قال: لا ما نسيتهما. وعجل له الجائزة..

***

ودخل أبو دلامة على المهدي وعنده عدد من علية القوم فقال له: أنا أعطي الله عهدا لئن لم تهج أحدا من الحاضرين لأقطعن لسانك. تفحّص أبو دلامة الحاضرين وكل يغمز له بأن يتجنبه عليه رضاه، فلم ير أحدا أحق بالهجاء من نفسه فأنشد:

ألا أبلغ إليك أبا دلامه وليس من الكرام ولا كرامه

إذا لبس العمامة كـان قـردا وخنزيرا إذا نـزع العـمامه

جمعت دمامة وجمعت لؤما كـذاك اللؤم تتبعه الدمـامه

فإن تكُ قد أصبت نعيم دنيا فـلا تفـرح فقد دنت القيامه

فضحك القوم ولم يبق فيهم أحد إلا أجازه.

***

وكان أشد المواقف حرجا له حين يدفع إلى خوض معركة أو قتال عدو. طلب منه المنصور الخروج معه للقتال، فقال أبو دلامة: يا أمير المؤمنين إني أعيذك بالله أن أخرج فوالله إني لمشؤوم.

فقال المنصور: امضِ فان يُمْني يغلب شؤمك.

فقال: والله يا أمير المؤمنين ما أُحِبُّ لك أن تجرب مني ذلك على مثل هذا العسكر، ولقد شهدت تسعة عشر عسكرا كلها هزمت وكنت سببها، فإن شئتَ أن يكون عسكرك العشرين فافعل.

فاستغرق المنصور ضاحكا وأعفاه من الخروج.

***

وأبرز ما في حياة أبي دلامة الاستجداء، فقد احترف التسول في بلاط الخلفاء وخارجه من علية القوم وكان لا يحفل في سبيل تحصيل المال بإهدار كرامته ومروءته.

كان بين يدي المنصور فقال له: سلني حاجتك.

قال: كلب صيد.

قال: أعطوه كلب صيد.

قال: ودابة أتصيد عليها.

قال: أعطوه.

قال: وغلام يصيد بالكلب ويقود الدابة.

قال: أعطوه.

قال: وجارية تصلح لنا الصيد وتطعمنا منه.

قال: أعطوه جارية.

قال: هؤلاء يا أمير المؤمنين عبيدك فلا بد لهم من دار يسكنونها.

قال: أعطوه دارا تجمعهم.

قال: فإن لم تكن لهم ضيعة فمن أين يعيشون؟!

قال: قد أعطيتك مائة جريب عامرة ومائة جريب غامرة.

قال: وما الغامرة؟

قال: ما لا نبات فيها.

قال: قد أقطعتك يا أمير المؤمنين خمسمائة ألف جريب غامرة من فيافي بني أسد.

فضحك، وقال: اجعلوها كلها عامرة..

قال فائذن لي يا أمير المؤمنين أن أقبل يدك.

قال: أما هذه فدعها.

قال: والله ما منعت عيالي شيئا أقل ضررا عليهم منها!

***

وهنا أسلوب آخر من أساليب استجدائه فقد دخل على المنصور وأنشده:

رأيتك في المنام كسوت جلدي ثيابا جمة وقضيت ديني

فصَدِّق يا فدتك النفس رؤيا رأتها في المنام كذاك عيني

فأمر له بذلك وقال له: لا تعد تحلم علي ثانية فأجعلُ حلمك أضغاثا!!

***

وقدم المهدي من الري فدخل عليه أبو دلامة، فأنشأ يقول:

إني نذرت لئن رأيتك سالما بقرى العراق وأنت ذو وفر

لتصـليّنَ على النبيِّ محمد ولتملأنَّ دراهما حجري

فقال: صلى الله عليه وسلم ، أما الدراهم فلا.

فقال له: أنت أكرم من أن تفرق بينهما ثم تختار أسهلهما.

فأمر أن يُمْلأ حجره دراهما!!

***

وقد حذقت زوجه أساليب التسول - مثله - وكانت لهما أعمال مشتركة، فقد دخل أبو دلامة على المهدي وهو يبكي. فقال له : ما لك؟ قال ماتت أم دلامة، وأنشد:

وكنا كـزوج من قطـا في مفازة
لدى خفض عيش ناعم مورق رغد

فأفْرَدَني ريْـبُ الزمان بصـرفه
ولم أر شيئا قط أوحش من فرد

فأمر له بثياب وطيب ودنانير وخرج. فدخلت أم دلامة على الخيزران - زوجة المهدي - فأعلمتها أن أبا دلامة قد مات فأعطتها مثل ذلك، وخرجت. ولما التقى المهدي والخيزران عرفا حيلتهما فجعلا يضحكان ويعجبان منهما!!

***

وكان أبو دلامة يحمل معه خريطة لتستقبل ما يؤمر به إليه من دراهم وكسوة، وكان إذا حملها يطويها طيا محكما بحيث تبدو صغيرة جدا، فإذا سأله الخليفة ما يريد، قال تملأ هذه الخريطة دراهم، فيهون عليه الأمر. يروى أن أبا دلامة دخل على المهدي فقال له: ما الذي غدا بك اليوم علينا؟

قال: وُلِدتْ لي جارية.

قال: فهل قلتَ فيها شعرا؟

قال: نعم، وأنشد:

فما ولدتك مريم أم عيسى ولم يكفلك لقمان الحكيم

ولكن قد تضمك أم سوء إلى لباتها وأب لئيم

فضحك المهدي، وقال: وما تريد أن أعينك به في تربيتها؟

قال: تملأ هذه، وأشار إلى الخريطة.

فقال المهدي: وما عسى أن تحمل هذه؟

قال: من لم يقنع بالقليل لم يقنع بالكثير.

فأمر أن تملأ، فلما نشرت أخذت عليهم صحن الدار..

***

وكان أبو دلامة مغرما بالجواري ولذلك فكثيرا ما كان يتردد على النخاسين - وخاصة الجُنيد - كان يأتيه كل يوم فيقول له: أخرج لي فلانة.

فلما طال الأمر على الجنيد قال له: إلى متى تخرج إليك ولست بمشتر؟

قال: فإن لم أشتر فاني أمدح وأطري..

قال: ما أنا مخرجها إليك أو تقول فيها شعرا.

قال: فاحلف بعتقها أن ترويها إياه، وتأمرها بإنشاده من أتاك يعترضها ولا تحجبها.

فلما حلف أنشد:

إني لأحسب أن سأمسي ميتا أو سوف أصبح ثم لا أمسي

من حب جارية الجنيد وبغضه وكلاهما قاض على نفسي

***

ومن طرائفه ما يروى من أن حمادة بنت عيسى زوجة المنصور وابنة عمه لما توفيت وقف المنصور والناس معه على حفرتها

ينتظرون دفنها، فأقبل المنصور على أبي دلامة وقال له: ما أعددتَ لهذه الحفرة؟

قال: بنت عمك يا أمير المؤمنين يُجَاءُ بها الساعة فتدفن فيها.

فأخذ المنصور يستر وجهه حتى لا ترى ضحكته!!

***

ومن المواقف الطريفة التي أختم بها هذه المواقف أنه كان مع المهدي وعلي بن سليمان في رحلة صيد، فسنح قطيع من الظباء، فرمى المهدي ظبيا بسهم فصرعه، ورمى علي بن سليمان فأصاب كلبا من كلاب الصيد، فقال أبو دلامة:

قد رمى المهدي ظبيا شك بالسهم فؤاده

وعلي بن سليما ن رمى كلبا فصاده

فهنيئا لهما كل امرىء يأكل زاده

فضحك المهدي حتى كاد يسقط من سرجه وأمر له بجائزة سنية!!!

المعتمد بن عباد :

الملك الشقي

بعد أن خرج القواد والعلماء والأعيان من مجلس الخليفة عباد بن أبي القاسم الملقب بـ (المعتضد) في عاصمة ملكه (إشبيليا) أراد ابنه محمد بن عباد الملقب بـ (المؤيد) الاستئذان، ولكن والده استبقاه، ثم صرف الحاضرين كلهم وتوجّه بالحديث إلى ابنه بكل حنان الأب وحزم الملك فقال له:

اسمع يا بني.. هذا المُلك لم يصل إلينا بسهولة.. كم حاربنا وقاتلنا في سبيل توحيد أركان مملكتنا، وما زالت خططنا وطموحاتنا في توسيع رقعة المملكة العبادية.. ولن يهنأ لي بال حتى أجمع الأندلس كلها تحت حكمي رغم تضييق النصارى وعداوات حكام الإمارات المجاورة من عرب وبربر وصقالبة.. لن أترك دولتنا تنتهي كما انتهت دولة بني أمية في الأندلس قبل عشرين سنة؟!

لقد عهدت فيك يا بنيّ شجاعة وفروسية ولذلك أسندت إليك قيادة فتح مدينة (شلب) وقد جنيت ثمرة جهدك فوليتك عليها وأنت لم تتجاوز الثالثة عشرة، وهأنذا أضيف لك ولاية (شنتمرية) قاعدة

غرب الأندلس التي سننطلق منها لامتلاك ما تبقى من غرب الأندلس كله..

وأراد الابن أن يشكر أباه لكن الأب واصل حديثه غير عابئ بمقاطعة الابن: وقد رأيت اهتمامك الزائد بهذا الشاب المسمى (ابن عمار) حتى إنك استوزرته.. صحيح يا بني أنه شاب موهوب وأشعاره رقيقه وهو نديم لا يمل، لكن الوزارة تحتاج إلى عاقل حصيف أكثر من شاعر فَكِه.. كل ما أقوله لك: كن حذرا من هذا الشاب فإني أرى فيه بوادر طيش، وإقبالا شديدا على مجالس الأنس..

***

نشأ ابن عمار في مدينة شلب التي يتولى إمارتها المؤيد - الذي أسمى نفسه لاحقا المعتمد - وكان ابن عمار شابا ظريفا شاعرا وأديبا، لكن الفقر جعله يتخذ من الشعر وسيلة للتكسب حتى إنه ذات يوم مر بالسوق ولم يكن معه ما يطعم دابته، فمدح أحد أصحاب السوق بأبيات كانت جائزته عليها أن ملأ مخلاته شعيرا لدابته!!

لكنه سرعان ما توجه إلى المعتضد، فامتدحه بقصيدة طنانة يقول في مطلعها:

أدر الزجاجة فالنسيم قد انبرى
والنجم قد صرف العنان من السرى

والصبح قد أهدى لنا كافورة
لما استرد الليل منا العنبرا

وقد استحسن المعتضد هذه القصيدة، وكان متذوقا للشعر يرتاح لجيده ويجيز عليه ويشجع قائليه ويُظِلّهم برعايته، فأمر لابن عمار بمال وثياب ومركب وأن يكتب اسمه في ديوان الشعراء، وأتاح له ذلك فرصة الاتصال بالمعتمد.. وكان ابن عمار شائق الحديث جذاب الشخصية فلما ولي المعتمد الحكم في مدينة شلب اتخذه وزيرا له وأولاه ثقته، وأكد بينهما الود أن الاثنين كانا من هواة الشعر والأدب وغواة المغامرات والانطلاق وراء المتع والملذات..

***

كان المعتمد مع صديقه ووزيره ابن عمار في الوادي الكبير حين أبصر نسمات الهواء تحرك مياه النهر حركات خفيفة، فقال المعتمد لصديقه الشاعر: أَجِزْ

صنع الريح من الماء زُرَدْ

فأطال ابن عمار التفكير، وإذا بفتاة ترد:

أي درع لقتال لو جَمَدْ!!

فالتفت المعتمد وإذا حسناء فاتنة أدهشه جمالها كما أدهشته ذائقتها الأدبية وسرعة بديهتها، وسألها إن كانت ذات زوج فأجابت بالنفي. فلما غادرت قال لخادمه: سل عن هذه الفتاة واعرف مكان أهلها،

فعرف أنها جارية رميك بن حجاج وأن اسمها اعتماد، فلما عاد إلى قصره استدعى صاحبها واشتراها منه وتزوجها، وكانت ذات حديث جذاب ونكات بارعة فملكت على المعتمد شغاف قلبه، ولم يتردد في تنفيذ طلب لها مع ما عُرف عنها من جموح نزواتها وبُعْد مطالبها، وكان أول هذه النزوات أن غيّر ابن الخليفة لقبه من (المؤيد) إلى (المعتمد) نسبة إليها!!

رأت الناس ذات يوم يمشون في الطين فاشتهت أن تفعل مثلهم، فأمر المعتمد فسُحِقت أخلاط من الطيب وذُرّت في ساحة القصر ثم صب عليها ماء الورد وعجنت بالأيدي حتى غدت كالطين وخاضت فيه هي وجواريها!! ولما غاضبته ذات يوم قالت له: ما رأيت منك خيرا قط!! قال لها: ولا يوم الطين؟! فاستحيت واعتذرت..

وشاهدت ذات يوم أهل قرطبة وهم يندفون بالثلج - وكان منظرا نادر الحدوث في قرطبة - فطلبت من حبيبها المعتمد أن يوفر لها هذا المنظر كل شتاء أو يأخذها كلما حل الشتاء إلى مكان لا ينقطع فيه هذا المنظر، فأمر بزرع أشجار اللوز على جبل قرطبة حتى إذا نوّر زهره بدت الأشجار وكأنها محملة بقطع الثلج الناصع البياض !!

***

كان المعتمد ينعم بحب زوجته ومجالسة صديقه وكان كل منهما يغريه بالانطلاق في المتع والإسراف في اللهو، فتكاثرت الأقاويل

عنهما فأغضب ذلك والده المعتضد فقرر أن يقطع دابر تلك الأقاويل بالتفريق بينه وبين صديقه فنفاه، وما زال في المنفى إلى أن توفي المعتضد سنة 461هـ وآلت مقاليد حكم البلاد إلى المعتمد، فكان أول قرار اتخذه هو أن أعاد صديقه ابن عمار من منفاه وسأله أن يختار المنصب الذي يرضيه، ويبدو أن المنفى قد وسع آفاق تفكيره ودائرة طموحاته، فلم يختر أن يكون وزيرا للمعتمد وقريبا منه بل طلب أن يكون واليا على مسقط رأسه مدينة (شلب).. وبرغم أسف المعتمد على أن يكون صديقه الأثير بعيدا عنه فإنه رأى أن يضحي برغبته في قربه من أجل الاستجابة لطلبه..

دخل ابن عمار مدينة شلب في موكب فخم وجملة عبيد وحشم وكان أول شيء فَعَلَهُ هو أن سأل عن صاحب الشعير فأرسل إليه مخلاته ذاتها بعد أن ملأها دراهم وقال لرسوله: قل له: لو ملأها بُرّا لملأناها تبْرا!!

على أن المعتمد لم يطق الصبر على فراق صديقه فما لبث أن استدعاه وعيّنه كبير وزرائه، ولم يمنع اشتغال الوزير الشاعر بسياسة الدولة وأعباء الحكم من استدعائه من الحين للحين إلى مجالس لهوه وإشراكه معه في سويعات أنسه وطربه..

***

كما سار المعتمد سيرة أبيه في اللهو وطلب الملذات سار سيرته كذلك في توسيع رقعة مملكته، وكما تحتاج هذه الحروب إلى القوة

العسكرية والشجاعة تحتاج في كثير من الأحيان إلى الاعتماد على إعمال الحيلة والغدر وتوظيف الطابور الخامس، ولذلك تم للمعتمد الاستيلاء على عدد من المدن والأقاليم كان أولها وأهمها (قرطبة) سنة 462 ثم (طليطلة) وما جاورها.. وتظل هذه الانتصارات شكلية لأن المعتمد ظل يدفع الجزية كغيره من أمراء الطوائف إلى ملك قشتالة (فرناندو) ثم (ألفونسو) ..

وفي سبيل توسعة رقعة مملكته حذا المعتمد حذو غيره من أمراء الطوائف في الاستعانة بالقوات الأجنبية بمشورة كبير وزرائه ابن عمار الذي بانت منه بوادر الخيانة والأطماع، وقد بدأ المعتمد يشك في خليله وصفيّه ابن عمار.. قال له يوما ما: "سر إلى خيرة الله ولا تظن أني مخدوع "!! فرد عليه ردا ينبئ عن مكنون نفسه: "لستَ مخدوعا، ولكنك مضطر"..

وقد ازدادت الهوة بين الصديقين فحين أرسل المعتمد ابنَ عمار لينوب عنه في أخذ البيعة له بعد استيلائه على (مرسيه) جلس وكأنه الملك يوقع للناس رقاعهم باسمه. ولم يترك وسيلة من وسائل الخداع والخيانة والتحالف مع الأعداء إلا اتخذها لتحقيق مآربه، ولكن حبل الخيانة قصير فسرعان ما سلّمه من وثق فيهم إلى المعتمد فدخل عليه في قرطبة ذليلا مهينا بعد الرياسة والنفوذ.. وانتهى به الأمر إلى السجن وما زال يمارس هوايته في التخريب والخروج عن طاعة ولي نعمته حتى وهو في السجن إلى أن خرج المعتمد عن طوره وأخذ الطبرزين - فأسا كالمطرقة - ولم يزل يضربه بها حتى أسلم الروح!!

إن الشعور الذي استولى على المعتمد لم يكن شعور الغضب والرغبة في الانتقام، إنما كان شعور الحزن وخيبة الأمل في صديقه الذي أطعمه من جوع وآمنه من خوف ورفعه إلى أسمى المناصب!!

***

وفي الوقت الذي استمر فيه ملوك الطوائف في حروبهم البينية والتنافس في توسيع ممتلكاتهم على حساب بعضهم بدأ النصارى الأسبان في إعداد جيوشهم بأموال المسلمين التي يأخذونها منهم على شكل جزية أو بدل حماية لعروشهم، وبدأت حركة الاسترداد - أي استرداد أراضيهم التي استولى عليها المسلمون لعدة قرون - وظهر خطرهم بعد استيلاء ألفونسو على (طليطلة) سنة 478 وتسمية نفسه ملك الملتين - أي الإسلام والمسيحية – فبدأ المعتمد يفكر في أمير المرابطين يوسف بن تاشفين لإنقاذه من خطر النصارى، فعرض الأمر على بعض الأمراء والقضاة في اجتماع عقد لهذا الغرض في جامع قرطبة، وأجمعوا أمرهم على إرسال وفد لدعوته، وطلب يوسف من الوفد - بناء على نصيحة كاتبه الأندلسي الأصل عبد الرحمن بن أسبط - تسليمه الجزيرة الخضراء لتكون مقرا لجيوشه وقاعدة عسكرية ..

وُضِعَتْ خطة حربية محكمة للمعركة التي عرفت فيما بعد باسم (الزلاقة) والتي دارت رحاها في(بطليوس) بمشاركة قوات المرابطين وبقيادة المعتمد بن عباد الذي أبلى فيها بلاء حسنا وكان من نتيجة هذا الانتصار أن أُرغِم الإسبان على مغادرة بلنسية التي

كانوا قد احتلوها ورفع الحصار عن سرقسطة.. ورجع يوسف إلى المغرب وفي نفسه أشياء كثيرة من ملوك الأندلس وأحوالها وأدهشه ما شاهد فيها من مظاهر الترف ودلائل الإسراف والانطلاق وراء المتع..

***

استعاد الأسبان حصن (لبيط) في الشرق وأصبحوا يشنون منه الغارات المتوالية على النواحي المجاورة ويوقعون الرعب في قلوب أهلها وقد استطاعوا وهم مستندون إلى هذا الحصن من محاصرة المرية ولورقة ومرسية، وقَدّر أهلُ هذه البلاد حرجَ الموقف، وكان الفقهاء في طليعة من استشعر الخطر واجتمعت آراؤهم على دعوة يوسف مرة ثانية، وذهب كثير منهم إليه في قصره بمراكش وأخذوا يبثون شكواهم ويستثيرون حميته للدفاع عن الدين لكنه أجابهم بأنه يحتاج إلى دعوة من الأمراء أنفسهم، فما كان من المعتمد إلا أن عبر إليه بنفسه، وعاد يوسف إلى الأندلس وخلص المسلمين من شر الأسبان وحرر حصن لبيط!!

عندها ازداد سخط رجال الدين على الأمراء لفرط عنايتهم ببناء القصور الفخمة وشرب الخمور واقتناء الجواري والإنفاق على الشعراء ومصادقة النصارى، وانضم إليهم في سخطهم طبقة العمال والمزارعين وسائر أصحاب الدخول المحدودة.. واجتمعوا بيوسف وأعلنوها صريحة أن انتصار المسلمين مرهون بإزالة ملوك الطوائف كلهم!! ولكي تزول شكوكه في شرعية ما طلبوا

منـه قدموا لـه فتوى تجيز لـه خلعهم وتحلـه من سابق تعهده لهم بالإبقاء عليهم والمحافظة على عروشهم..

***

ركب يوسف البحر للمرة الثالثة سنة 483 إلى الجزيرة الخضراء ووافاه بها المعتمد وتوجه إلى غرناطة وخلع أميرها، وظن المعتمد أنه سيعطيه غرناطة تعويضا له عن الجزيرة الخضراء!! ولما لم يتبين له رغبته في ذلك ندم ابن عباد على استدعاء يوسف، وأمسك الأمراء عن إمداد المرابطين بالمؤن والرجال واعتزموا تكوين حلف مع ألفونسو لدفع خطر المرابطين!!

وعاد يوسف إلى الجزيرة وأبحر منها إلى إفريقية تاركا مهمة انتزاع عروش الأمراء لقواده!!

تقدمت جيوش المرابطين إلى قرطبة سنة 484 وحاصرتها وكان بها الفتح بن المعتمد الملقب بـ (المأمون) ولم تقاوم طويلا فقد أسلمها أهلها للمرابطين وحاول المأمون أن يشق طريقه بين الأعداء ولكنهم تكاثروا عليه وقتلوه ورفعوا رأسه على رمح وطافوا به البلاد!!

أما المعتمد فإنه استنجد بألفونسو الذي أرسل جيشه لكنه هزم.. وحوصرت مدينة إشبيليا عاصمة ملكه حتى أحدث الناقمون ثغرة في سورها تقدم منها المرابطون.. وبرز المعتمد من قصره ليس عليه إلا غلالة تشف عن جسده وأظهر بسالة نادرة في

الدفاع ورغبة في الموت، لكنه أُخِذَ قبضا باليد بعد أن فقد بعضا من أبنائه.. وفي وصف بسالته يقول:

قالوا الخضوع سياسة فليبد منك لهم خضوع

وألذ من طعم الخضو ع على فمي السم النقيع

إنْ يسلب القوم العدا ملكي وتسلمني الجموع

فالقلب بين ضلوعه لم تسلم القلب الضلوع

قد رمت يوم نزالهم ألا تُحَصِّنني الدروع

وبرزت ليس سوى القميص عن الحشا شيء دفوع

أجلي تأخّر لم يكن بهواي ذلي والخضوع

ما سرتُ قطُّ إلى القتا لِ وكان من أملي الرجوع

شيم الألى أنا منهم والأصل تتبعه الفروع

***

حُمل المعتمد وأهله في الجواري المنشآت في نهر الوادي الكبير ثم إلى سجن في مدينة أغمات بالقرب من مراكش عاصمة ملك المرابطين حتى لا يجد سبيلا للهرب أو طريقا للثورة والعصيان.. أقام المعتمد في السجن كاسف البال لا مؤنس له سوى زوجته

اعتماد وهو يتجلد ويتذرع بالصبر، ولم يكن يشقيه أكثر من بناته وهنّ في أسمال بالية يغْزلن ليحصلن على القوت، ولم تخذله قريحته الخصبة ولا بديهته الموفقة، فقد دخلت عليه بناته في يوم عيد الفطر وقد بدت عليهن آثار الفاقة والبؤس والشقاء بعد النعيم والترف، وذكر ذلك اليوم الذي كُنّ وأمّهن وجواريهن يمشين في الطين المصنوع من الطيب وماء الورد فأنشد:

فيما مضى كنت بالأعياد مسرورا
فساءك العيد في أغمات مأسورا

ترى بناتك في الأطمار جائعة
يغزلن للناس ما يملكن قطميرا

بـرزن نحـوك للتسليم خاشعة
أبصارهن حسيرات مكاسيرا

يطأن في الطين والأقدام حافية
كأنها لم تطأ مسكا وكافورا

أفطرتَ في العيد لا عادت إساءتُهُ
فكان فطرُك للأكباد تفطيرا

قد كان دهرك إن تأمرْه ممتثلا
فردك الدهر منهيا ومأمورا

من بات بعدك في ملك يُسرّ به
فإنما بـات بالأحـلام مغرورا

ودار فـي ذهـن المعتمـد مـا يتحـدث بـه النـاس عـن أياديـه البيضـاء عليهم وكـريم خصـاله وأفعالـه، وتصـور أن أخبـار أسره وسـجنه غدت أحاديثهم في أسمارهم فأنشأ يقول:

أنبــاء أســرك قــد طبقــن آفاقــا
بل قد عممن جهات الأرض إقلاقا

سرت من الغرب لا تطوى لها قدم
حتى أتــت شــرقها تنــعاك إشراقا

فأحــرق الفجــع أكبــادا وأفئــدة
وأغــرق الدمــع آمــاقا وأحــداقا

قد ضاق صدر المعالي إذ نُعيتَ لها
وقيــل إنّ عليــك القيــد قد ضــاقا

ونظم المعتمد أبياتا في يوسف تراوحت بين العتب عليه وبين مدحه والإشادة بمواقفه خاصة في معركة الزلاقة، ولكنه لم يجد منـه أذنـا صاغية.. ومما قاله مادحا يوسف ومشيدا بموقفه في معركة الزلاقة هذه الأبيات:

ويوم العروبـة ذُدْت العِــدا
نصرتَ الهدى وأبيت الفرارا

ثَبَــتّ هنــاك وإن القــلو
بَ بين الضلوع لتأبى القرارا

ولولاك يا يوسف المتقى
رأيــنا الجــزيرة للكفــر دارا

رأينا السيوف ضحى كالنجو
م وكالليل ذاك الغبار المثارا

ومما زاد الطين بِلّة محاولة عبد الجبار بن المعتمد الثورة على جيوش المرابطين، فاعتقد يوسف أن المعتمد له علاقة بهذه الحركة الفاشلة فأمر بتقييده بالحديد.. لكن هذه الثورة وإن فشلت إلا أنها ألهبت عواطف المعتمد وذكرته بأيام الحروب وأثارت فيه الشوق إلى حمل السلاح..

ولما اضمحل أمله وساءت صحته توفي في سجن أغمات سنة 488هـ وكان قد نظم القصيدة التالية حين أحس بدنو أجله، وأوصى أن تكتب على قبره:

قبرَ الغريب سقاك الرائح الغادي
حقا ظفرت بأشلاء ابن عباد

بالحلم بالعلم بالنعمى إذا اتصلت
بالخصب إن أجدبوا بالري للصادي

بالطاعن الضارب الرامي إذا اقتتلوا
بالموت أحمـر بالضرغامة العادي

بالدهر في نـقـم بالـبحـر في نـعم
بالبدر في ظلم بالصـدر في النـادي

نعم هو الـحق حـابانـي به قـدر
من السـمـاء فوافـاني لـمـيعـاد

ولم أكـن قبل ذاك النعش أعلمـه
أن الجـبـال تهـادى فـوق أعـواد

كفاك فارفق بما استودعت من كرم
رواك كل قطـوب البرق رعّـاد

يبكي أخـاه الذي غيبت وابلـه
تحت الصـفيح بدمع رائح غادي

حتى يجودك دمـع الطل منهمـرا
من أعين الزهر لم تبخل بإسعاد

ولم تزل صـلوات الله دائمـة
على دفيـنك لا تحصـى بتعـداد

***

يقول الفيلسوف الألماني هيجل: "الشيء الوحيد الذي نتعلمه من التاريخ أنه ليس هناك أحد يتعلم من التاريخ"!!

***

ابن عنين :

شاعر يسكنه القلق

لم أجد أقرب من "القلق" صفة لهذا الشاعر الغريب الأطوار، فقد دار نصف الكرة الأرضية يبحث عن سكن وأناس يرتاح إليهم ويرتاحون إليه ولكنه لم يجد!! وكيف يجد وهو شاعر بذيء اللسان إلى درجة الوقاحة.. وهل أدل على ذلك من هجائه لصلاح الدين الأيوبي البطل الذي أشغلته هموم الأمة عن بضاعة الشعراء!!

هو شرف الدين أبو المحاسن محمد بن نصر المشهور بابن عنين الأنصاري الدمشقي. ولد في دمشق في سنة 549هـ، ونشأ وتعلم على أيدي طائفة من العلماء والفقهاء بالجامع الأموي، منهم العَلَم المشهور الحافظ بن عساكر والنحوي أبو الثناء محمود بن نعمة بن أرسلان الشيزري، والفقيه قطب الدين النيسابوري، وعندما رحل إلى بغداد سمع من أدبائها وعلمائها، فكان شاعرا أديبا يحتكم إليه الشعراء، راويا للشعر وللأخبار، وله باع طويل في الحديث والتفسير والمنطق والفلك والهندسة والحساب. أما النحو والفقه فقد تمكن منهما إلى أن أصبح حجة فيهما، فكان يرجع إليه في العويص من المسائل الفقهية وخاصة ما يكون سبب صعوبتها

تركيبها النحوي. وقد ظهرت آثار إلمامه بهذه العلوم في شعره لا سيما النحو، فمن ذلك قوله:

كأني من أخبارِ إنَّ ولم يجزْ
له أَحدٌ في النحوِ أنْ يتقدَّما

عسى حرفُ جرٍ مِن نداكَ يجرُّني
ِ إليكَ فأضحي مِن زماني مُسَلَّما

وكذا قوله:

لِمَ أَخَّرتَني وقدَّمتَ غيري أنا حالٌ وغيريَ استفهامُ؟!

ابتدأ قول الشعر وهو ابن ست عشرة سنة، وما إن اشتد عوده حتى بدأ يغمز الدولة والقائمين عليها من قواد وقضاة، كما يغمز علماء دمشق ورؤساءها وأعيانها، ولقد بلغت به الجرأة مبلغا بعيدا حتى تعرض لصلاح الدين فقال:

قد أصبح الرزق ماله سبب
في الناس إلا البغاء والكذب

سلطاننا أعرج وكاتبه
ذو عمش والوزير منحدب

وصاحب الأمر خلقه شرس
وعارض الجيش داؤه عجب

يبيـت مـن حِكَّـة تؤرقــه
في دبـره كالسـعير يلتهــب

وحاكم المسلمين ليس له
في غير غرمول أسود أرب

عيوب قوم لو أنها جمعت
في فلك ما سرت به شهب

وضجر به الناس في دمشق، فنفاه السلطان صلاح الدين، فأخذ يهتف:

فعلام أبعدتـمْ أخـا ثقـة
ما خانكم يوما ولا سرقا

انفوا المؤذن من ديــاركم
إن كان يُنفَى كل من صدقا

ولا بد من وقفة تأمل لهذا السلوك الشائن من شاعر أديب عالم. لِمَ هذا الهجاء المقذع؟ ولِمَ يستهدف رموز الدولة؟ أغلب الظن أن ثورته هذه ثورة سياسية مذهبية، فمن المعروف أن صلاح الدين أقام دولته على أنقاض الدولة الفاطمية الشيعية، واستبدل بالقضاة الشيعة قضاة سنّة شافعية، هاهو يصرح لصديق له عن عدم رضاه عن الحاكم مما اضطره للابتعاد عن دمشق:

وتقول أهل دمشــق أكرم معشــر
وأجلهم ودمشق أفضل منزل

وصدقتَ إن دمشق جنّة هذه الــ
ـدنيـا ولكن الجـحـيـم ألـذّ لـــي

لا الحاكم المصري ينفذ حكمــه
فيها عليّ ولا العواني الموصلي

هيهات أن آوي دمشق ومُلْكُها
يُعزى إلى غير المليك الأفضل

وهاهو يوجه النصح لصلاح الدين لتغيير قاضيه، وهي نصيحة تحمل من النقد والسخط أكثر مما تحمل من النصح:

أقولـها لــو بلغــت مـا عسـى
فالطبل لا يضرب تحت الكسى

قاضيك إن لم تُقْصِهِ فاخصِهِ
أولا فـلا يــحـكم بيــن النســـا

ويبـدو كـذلك أن هـذا العـداء كـان مؤقتـا، لأن الأيـوبيين اسـتطاعوا بأعمالهم الجليلة وانتصاراتهم الساحقة على الروم - لا سيما تحرير بلاد المقدس على يد صلاح الدين - أن يخرسوا الألسنة وينتزعوا الإعجاب من الأعداء قبل الأصدقاء، فظهرت لـه قصـائد فـي مـديح الأيوبيين كانت من أجمل ما حفظ التاريخ الأدبي..

***

بعد نفي ابن عنين رحل إلى الجزيرة وأذربيجان وخراسان وغزنة وخوارزم وما وراء النهر، ثم دخل الهند واليمن واشتغل بالتجارة بين هذه الأقطار، ثم رجع إلى الحجاز ومصر.

وظل يحن إلى دمشق ويذكرها في غربته واصفا رباها ومغانيها غير ناسٍ الأسباب التي اضطرته إلى تركها وأهمها المحافظة على عزته وكرامته.. يفتتح إحدى قصائده بقوله:

حنيــن إلى الأوطــان ليس يزول
وقلبٌ عن الأشــواق ليس يحول

ويمضي بعد ذلك إلى أن يقول:

وهل أرينّي بعدما شطتْ النوى
ولي في رُبى روضٍ هناك مَقيلُ

دمشـقُ فبي شوقٌ إليها مبرّحٌ
وإنْ لــجَّ واشٍ أو ألحَّ عذولُ

ديارٌ بها الحصباءُ درٌ وتُربــها
عَبِيرٌ وأنفاسُ الشمالِ شَمولُ

تسلسلَ فيها ماؤها وهو مطلقٌ
وصحَّ نسيمُ الرَّوضِ وهو عليلُ

ثم يقول:

ووالّلـهِ ما فارقتُها عـن مَلالة
سِـواي عن العهدِ القديمِ يَحولُ

ولكن أَبتْ أن تحملَ الضيمَ همتي
ونفسٌ لها فوق السِماك حُلولُ

فإنَّ الفتى يلقـى المنايا مكرَّماً
ويكرهُ طولَ العمرِ وهو ذليلُ

ولذلك لم يطمئن في أي بلد من البلدان التي حطت ركابه فيها، ففي الهند لم يلق تقديرا، فهجا الهنود بقوله:

وإذا سـقى الله البلاد فلا سـقى
أرض الهنود سوى الصواعق والدما

وفي بُخـارَى اجتمعت عليه الغربـة والفاقـة، ومما زاد في معاناتـه طرقُ ضيوفٍ بابَه وهو على هذه الحال:

لا رعى اللهُ ليلتي في بخارى
ذكرُها ما حييتُ حشو ضميري

طَرقتْني الضـيوفُ فيها وقـد بِـ
ـتُّ من الجوعِ في عذاب السـعيرِ

ليسَ في منزلي سوى قحفِ إبريـ
ـقٍ وباقي قطيعــةٍ من حصـــيرِ

أتقرَّى التجارَ في سائرِ الخا
ناتِ ظهراً عندَ اسـتواءِ القدورِ

فإذا فاتني كريمٌ يغدّيـــــــ
ـــني تعشـيتُ قُرصةً مِنْ شَـعيرِ

أما في اليمن فيبدو أنه لم يكن يشكو إلا من الغربة ومن شوقه الشديد إلى دمشق التي لا يرتضي بها بدلا حتى ولو أعطي قصر غمدان وملكه إذ يقول:

رعى اللّـــهُ قوماً في دمشـقَ أَعـزةً
عليَّ وإن لم يحفظوا عهدَ مَن ظَعنْ

يُذكــرُني البــرقُ الشـآميُّ إنْ خـفا
زماني بكم يا حبذا ذلكَ الزمــنْ

أأحبـابَنا لا أســألُ الطـــيفَ زَورة
وهيهاتَ أَين الديلمياتُ من عَـدَنْ

وكم قيلَ لي في ساحةِ الأرضِ مذهبٌ
وعن وطــنٍ للنفسِ ميلٌ إلى الوطـنْ

وهل نافعي أنَّ البــلادَ كثيــرة
أَطُــوفُ بها والقلبُ بالشــامِ مرتــهنْ

وما كنتُ بالراضي بصنعاءَ منزلاً
ولوْ نلتُ من غَمدانَ ملكَ ابنِ ذي يزَنْ

عســى عطفةٌ بدريةٌ تعكسُ النَوى
فألفى قريرَ العيــنِ بالأهلِ والوطنْ

***

ولا ننسى إشارته في البيت الأخير إلى أمله في عطف من نفاه فيعود إلى موطنه.. ولقد تحقق عما قليل أمله وعاد إلى دمشق، ولكن ليس بسبب عفو صلاح الدين عنه وإنما بسبب وفاته..

على أن صلاح الدين لم يكن وحده العائق الوحيد أمام عودته لأن ابن عنين اضطر لمغادرة دمشق إلى مصر بعد وصولها بوقت قصير دون أن يذكر مؤرخو الأدب أسباب ذلك.. ويظهر لي أنّ بيتين قالهما وهو يدخل دمشق كانا سببا في الحكم عليه مرة أخرى بالنفي، وهما:

هجوت الأكابر في جُلّق ورعت الوضيع بهجو الرفيع

وأخرجت منها ولكنني رجعت على رغم أنف الجميع

وفي مصر أحاطه شعراؤها بكل حفاوة وتكريم، ومع ذلك اشتاق إلى دمشق، فنظم قصيدة يمدح فيها الملك العادل الذي آلت إليه الأمور بعد صلاح الدين أحسبها من غرر قصائد المديح في الشعر العربي. بدأ القصيدة بمقدمة غزلية جميلة يشكو فيها من هجر الحبيب بسبب سماعه الوشايات وكأنه يشير بذلك إلى صد السلطان له:

ماذا على طيف الأحبـــة لو سـرى
وعليهمُ لو سامحوني بالكرى

جنحوا إلى قول الوشــاة فأعرضُوا
واللــه يعـلم أن ذلك مُفتـرى

يا مُعرِضــا عنّــي بغيـــر جنايــة
إلا لِما رقش الحسود وزوّرا

هبنـــي أســأتُ كما تقـوَّل وافترى
وأتيتُ في حُبِّيك أمرا مُنْكَــرا

ما بعـد بُعــدِك والصدود عقوبة
يا هاجري قد آن لي أنْ تغفرا

لا تجمعَــنَّ علــيَّ عتبــك والنّـــوى
حسْبُ المحبّ عقوبة أن يُهجرا

عبءُ الصدود أخف من عبء النوى
لو كان لي في الحب أن أتخيّرا

لو عاقبوني في الهوى بسِوى النّوى
لرجوتهم وطمعت أن أتصبرا

وانتقل بعد هذه المقدمة يتذكر أيام دمشق وصفو حياته فيها، ثم يذكر سبب بعده عنها، وأنه ما خرج منها إلا مضطرا للبحث عن أسباب العيش التي سُدّت في وجهه في موطنه:

فارقتُها لا عن رضى ، وهجرتها
لا عن قِلًى ، ورحلتُ لا متخيّرا

أسعى لرزق في البلاد مفرَّق
ومن البليّة أن يكون مقتّرا

ولقد قطعت الأرض طورا سالكا
نجدا وآونة أجِدُّ مغوّرا

وأصون وجه مدائحي متقنعا
وأكفُّ ذيلَ مطامعي متسترا

ويمضي في براعة لينتقل إلى المديح، وهو غرض القصيدة الأصلي فيورد ما دار من حديث بينه وبين رفقة له:

قالوا وقد خلط النعاسُ جفونهم
أين المُناخ فقلتُ جدّوا في السُّرى

لا تسأموا الإدلاج حتى تدركوا
بيض الأيادي والجناب الأخضرا

في ظل ميمون النقيبة طاهر الـ
أعراق منصــور اللــواء مظفّرا

العادل المـلك الذي أســـماؤه
في كل ناحيـــــة تشــرف منبرا

ويمضـي معددا صـفات الممدوح ومناقبـه التـي يـأتي علـى رأسـها العدل والشجاعة والخلق الكريم منتهيا بصفتي الحلم والعفو تلميحا قبل أن يصرّح بطلب الصفح:

أشــكو إليـك نوى تمادى عمـرها
حتى حسـبت اليوم منها أشهرا

لا عيشتي تصفو ولا رسم الهـوى
يعفو ولا جفني يصافحه الكرى

أُضحِي عن الأحوى المريع محلأ
وأبيــت عن ورد النمير منفّـرا

ومن العجـــائب أن تَفَيّأ ظلـــــــكم
كلُّ الورى ونُبِذتُ وحدي بالعرا

ولقد ســـئمت من القريض ونظمه
ما حيلتي ببضـــاعة لا تشـــترى

كسـدت فلما قمت ممتدحـا بهـــا
ملك الملوك غدوت أربح متجرا

ولا ندري أرضيَ عنه الملك العادل بعد هذه القصيدة أم لم يرض.. ربما سمح لـه بـالعودة لكنـه ظل بعيدا عن أي منصب، فلم يسطع نجمه إلا حين تولى الملك المعظم عيسى بن الملك العادل، وكان عالمـا فاضـلا أديبـا فقيهـا لغويـا نحويـا يقـرب العلمـاء والأدبـاء ويجالسـهم ويجـري علـيهم الجرايـات ويقتـرح علـيهم تـأليف الكتـب ويضع الخطط لها، ولذلك لم يكن عجيبا أن يُقبل هذا الملك العالم الأديـب علـى ابـن عنـين ويقربـه ويجعلـه سـميره، وولاه الـوزارة بدمشق، وهنـا أصبح ابن عنين عند الملك المعظم شـاعرا ونديما ووزيـرا ومستشـارا وسـفيرا. علـى أن ابـن عنـين ضـاق بعد حـين بالوزارة فطلب الاستقالة بشعر قال فيه:

أقلني عثـاري واحتسـبها صـــنيعة
يكون برحماها لـــك اللـــه جازيا

كفى حزنا أن لستَ ترضى ولا أرى
فتى راضـيا عني ولا الله راضـيا

ولســت أرجّي بعد ســبعين حجــة
حـيــأة وقد لاقيـت فيها الدواهيا

ولكن الملك لم يقبل استقالته فبقي فيها حتى مات المعظم فاستبقاه خلفه ابنه الناصر.

وقد رثى الملكَ المعظمَ بواحدة من غرر القصائد مع أنها لا تخرج عن المسار التقليدي لقصائد الرثاء، يقول في مستهلها:

يا دهرُ ويحكَ ما عدا مما بدا أرسلتَ سهم الحادثات فأقصدا

أغمدتَ سيفك مرهفا شفراته قد كان في ذات الإلــه مجردا

فافعل بجهدك ما تشاء فإنني بعد المعظــم لا أبالي بالردى

ثم يمضي معددا مناقب الراحل ومعاركه في الثغور المصرية وانتصارته على الروم ومعرّجا في نهاية القصيدة على خلفه ابنه الناصر، وكأنه يقول: خير خلف لخير سلف:

قــل للأعــادي إن فقدنا ســيدا يحمي الذمــار فقد رُزِقنا سيّدا

الناصر الملك الذي أضحى برو ح القدس في كل الأمور مؤيدا

أعلى الملوك محــلّة وأســدُّهم رأيا وأشــجعهم وأطــولهم يدا

***

وبوفاة الناصر ترك الوظيفة وكان قد طعن في السن لكنه لم يبتعد عن بلاط الملك الأشرف فقد مدحه بقصيدة ذات مقدمة غزلية رائعة، يقول في مستهلها:

جعل العتاب إلى الصدود توصلا ريم رمى فأصاب مني المقتلا

أغراه بي واش تقوّل كاذبا فأطاعه وعصيتُ فيه العذّلا

ورأى اصطباري عن هواه فظنه مللا وكان تقيّةً وتجمُّلا

هيهات أن يمحو هواه الدهرَ من قلبي ولو كانت قطيعته قِلى

ويستمر في قصيدته الطويلة متغزلا إلى أن يصل إلى صُلب الموضوع فيختم قصيدته الرائعة بأبيات استجداء:

ولربّ لائمة عليَّ حريصة باتتْ وقد جمعتْ عليّ العذلا

قالت أما تخشى الزمان وصرفه وتُقِلّ من إتلاف مالك قلت لا

أأخاف من فقرٍ وجودُ الأشرفِ السلطان في الآفاق قد ملأ الملأ

الواهب الأمصار محتقرا لها إن غيره وهب الهجان البزّلا

ما زار مَغناه فقير سائل فيعود حتى يستماحَ ويُسألا

ولا أدري لِمَ يستجدي وهو في آخر عمره إلا أن يكون استجداؤه استكثارا لا احتياجا، فقد أمضى عمره عزبا، ولم يكن فقيرا، فقبل وفاته بفترة وجيزة أهدى مماليكه إلى الملك الأشرف وكتب إليه:

يا ملك الدنيا الذي سخطه
يُفني وجدوى كفه تُغني

لي أعبد قد ضاق ذرعي بهم
وأضجرتهم علتي مني

يشكون مني مثل ما أشتكي
منهم فخلصهم وخلصني

ثم وقف داره على من التحى من المُرْدان، فلما سئل عن ذلك أجاب: هؤلاء تشغلهم المردوية عن تعلم الصنعة، فإذا التحى أحدهم لم يجد ما يتقوَّتُ به، وهي جهة من أوجه البر لم أسبق إليها!!

توفي - رحمه الله - بدمشق سنة 630 هجرية وقد بلغ الحادية والثمانين من عمره، ودفن بأرض المزة من نواحي دمشق..

***

وقد لازمته ملكة الشعر ولم تفارقه حتى بلغ من العمر عتيا.. هاهو في آخر عمره يزهو بقصائده في حضرة السلطان الأشرف فيقول مفتخرا إن الملك هو من استكتبه:

لمــا تخيّــرني أروي قصــائده
مضــيتُ قدْما وخلفت الرواة ورا

ثم يشبه قصائده لروعتها بسور القرآن الكريم:

لولا التُّقى قلتُ لا شيئٌ يعــادله
أستغفر اللــه إلا النملَ والشــعرا

ثم يزدري غيره ممن يدعون الشعر:

عجبتُ من معشر كيف ادعوا سَفَهًا
من بعد ما سمعوه أنهم شــعرا

وأخيرا يشير إلى صعوبة نظم الشعر خاصة على من يكد ذهنه في سبيل تحبيره فكيف به وهو شيح قارب التسعين:

والشــعر صــيْدٌ فهذا جُلُّ طاقته
حرش الضِّباب وهذا صائد بقرا

وليس مُستنزِل الأوعال من يفَعٍ
كمــنْ أتى نفـق اليربوع فاحتفرا

وإن من شارفَ التسعينَ في شغلٍ
عن القوافي جديرٌ أن يقولَ هرا

كـان ابـن عنين ضـنينا بشـعره فلا يكـاد ينشده عند أحد ولا يمليـه لمستكتب، ولذلك لم يتمكن معاصروه من جمع سوى جزء يسير

من شعره وبعضه مدسوس عليه. ولكن خليل مردم بك حقق ديوانا ضخما له نشرته دار صادر سنة 1959 عدد صفحاته يصل إلى تسع وستين ومائتي صفحة وعدد قصائده إلى سبع وثمانين ومائتين ما بين قصيدة ومقطوعة بعضها لا يتجاوز بيتا واحدا..

وأهم أغراض شعره: الهجاء والمدح والرثاء والغزل والوصف، خاصة وصف الطبيعة الدمشقية كما مثلتُ لذلك. كما اشتهر بنظم الألغاز والرد عليها. وله القليل من شعر الحكمة، وهو يأتي به غالبا في سياق الرثاء من مثل قوله:

لا يخدعنّـــــك صـيحة ويسـار ما لا يدوم عليك فهو مُعارُ

يغشى الفتى حب الحياة وزينة الـــــدنيا وينسى ما إليـــه يصـار

وإذا البصائر عن طرائق رشدها عميتْ فمـاذا تنفع الأبصـار

لا تغترر بالدهر إن وافاك حا لٌ لا يسـرك إنــه غـــــرّار

انظـر إلى من كان قبلك واعتبر ستصيرعن كثب إلى ما صاروا

ومما قال فـي الغـزل فـي ذوات المُقَلِ الضـيقة مقارنـا بـين أثرهـا الفتاك وبين الأعين النجل:

لا تعرضـنّ لضـيّق المُـقَلِ فتبيتُ من أمن على وَجَـلِ

واترك ظباء الترك سانحة لا تعترض لحبـائل الأجـل

لا يوقِعَنّك عذب ريقتها أنا من سُقيتُ السم في العسل

من كل مائسة منعّمة غرقى الأياطل فعمة الكفل

بيضاء تنظر من مضيّقة سوداء تهزأ من بني ثُعل

وبَلِيّتي من ضيق مقلتها إن خيف فتك الأعين النّجُل

ولابن عنين قصائد طريفة تشبه ما يسمى في أيامنا هذه بالشعر (الحلمنتيشي) فمن شعره الغزلي الهزلي قوله في أسْود:

أجل أنا في لون الشبيبة معرم
وإن لحّ عُذّال وأسرف لُوَّمُ

وما ذا عليهم أن كُلِفتُ بأسود
محلته في العين والقلب منهم

وقد عابني قوم بتقبيل خده
وما ذاك عيبٌ أسود الركن يُلثم

وهذه الأبيات التي يتضح فيها قصده إلى إضحاك السامع ليس غير:

لو أن قاضي الحب ممن يَرتشى
ما بتُّ أشكو من ظلامة (بكمشِ)

قمرٌ على غصن يميل به الصبا
فكـأنه من خُمر عانة منتشــي

وكـأن طـرّته وضـوءَ جبينــه
صبح توضّـح تحت ليل أغطش

عبث الغرام بقلب عاشـقه كما
عبث النسيم بصدغه المتوشوش

ومن شعره الطريف قصيدة يرثي فيها حماره صاغها في قالب رصين، أنقل منها:

ليــل بأول يوم الحشــر متصل
ومقلـــة أبـــداً إنســـانها خضـــل

وهــل ألام وقـد لاقيـتُ داهيــة
ينهــدُّ لو حَمَلتْــه بعضها الجبـــل

ثوى المصـك الذي قد كنت آملــه
عونــاً, وخُيــب فيــه ذلــك الأمـل

لا تبعدنْ تربـة ضـمّت شــمائله
ولا عـدا جانبيــها العارض الهطــل

قد كان إن سابقته الريح غادرها
كـــأنّ أخمصــها بالشـــوك ينتعـل

لا عاجزاً عند حمل المثقلات ولا
يمشي الهوينى كما يمشي الوجى الوحل

يُرِجِّع النهـق مقروناً ويطربنــي
لحنــاً كمــا يطرب المزموم والرمــل

لو كان يُفدى بمال ما ضننت به
ولــم تصـــن دونه خيــل ولا خــول

لكنهـــا خطـــة لابـــد يبلغهــا
هذا الورى , كل مخـــلوق له أجـــل

ومن خمرياته - وهي قليلة في ديوانه - قوله:

قــم فاسقنيها مــن ســلاف صانها
عصّارها في الدّن حولا كاملا

خمرا تخال شعاعها في كأســها
برقـــا تألّق أو نضــارا سـائلا

***

البهاء زهير :

الباحث عن إمارة ولقمة عيش !!

في اللحظة التي أنهيت فيها الفصل السابق من هذا الكتاب طُرِق عليّ باب منزلي فتوجهت إليه أفتحه وإذا بأحد أصدقائي الذين أرتاح لهم كثيرا!!

صديقي هذا لا يسكن حتى يعرف كل شيء.. ماذا كنتُ أفعل؟ ولِمَ؟ وهو لا ينتظر الإذن ليطرح رأيه أو تساؤله، بل يقول ما لديه بكل عفوية وصدق، ولذلك أحببت فيه فضوله وفضّلته على صمت الكثيرين الذي لا يُدرى ما وراءه..!

قال لي صديقي – وهو يمد يده إلى أوراقي التي لم أكن قد لملمتها بعد - : أراك تكتب عن ابن عنين! لعل غرابة أطواره كانت سببا في ترشيحه للكتابة عنه؟! هل غرابة الطبع هي - كذلك - ما يجمع بين شخصيات كتابك هذا؟!

قلت له: هذا صحيح إلى حد ما.. في هذا الكتاب أتناول شعراء من كل عصر ومن كل طبقة، لكني أبحث عن جوانب مميزة أو طريفة

فـي حيـاتهم حتـى أبعـد قلـيلا عـن التقليديـة التـي تسـم الكثيـر مـن الدراسات الأدبية.. لقد وجدت ابن عنين مختلفا عن غيره!!

قال صديقي: أنا أدلك على شاعر من عصر ابن عنين ستجد فيه نقيض ما لديه، فإذا كتبت عنه أثبت ما لابن عنين من غرابة الأطوار..

قلت له: لعلك تقصد البهاء زهي؟!

قال: نعم. هو ذاك..

قلت له: صدقت يا عزيزي.. البهاء لديه طمأنينة وقناعة، فعلى الرغم من أنه أمضى حياته يلهث بحثا عن ولاية أو مركز اجتماعي مرموق إلى أن اكتفى أخيرا بالبحث عما يسد رمقه فلم يهجُ أحدا لأنه لم يُنِله ما أراد..

وقد رأينا ابن عنين - وقد قلده الملك المعظم الوزارة وأصبح نديما ومستشارا وسفيرا - يقدم استقالته من الوزارة، في حين يفخر البهاء بقيامه بالسفارة للملك الصالح بعد أن عينه رئيسا لديوان الإنشاء:

وسفرتُ للملك العظيـــــــــــم الشأن والقدر الرفيع

رأيت صديقي مستغرقا يستمع لما أقول دون مقاطعة فواصلت: ورأينا ابن عنين - وقد دنا أجله - يستجدي الملك الأشرف وهو يملك منزلا أوقفه، وعبيدا ضاق بهم ذرعا حتى إنه أهداهم للملك

الأشرف نفسه، في حين يبيع البهاء كتبه وبعض مقتنياته ليأكل، ثم يموت هرما فقيرا مريضا!!

قال صاحبي: ومن المتناقضات أن البهاء الذي لم يتجاوز في أسفاره الشام يشكو من الغربة في حين أن ابن عنين الذي تجاوز الهند شرقا واليمن جنوبا لم يتحدث عن مشاق السفر، بل لم يكن يتحدث إلا عن عدم التوفيق في سفراته فحسب.. يقول البهاء:

إن أمري لعجيب لا يرى أعجب منهُ

كل أرض لي فيها غائب أسأل عنه!

أين من يشكو من البيــْن كما أشكو منه؟

قلت لصاحبي: ابن عنين كان منفيا، ويبدو أنه كان يريد الاستفادة من فترة العقوبة هذه في الحصول على مركز مرموق يغيظ به من أخرجوه من بلاده، ولكن من سوء حظه ومن سوء حظ معاصره - البهاء - أنْ أدركتهما حرفة الأدب وهي لا تغني شيئا في ذلك الزمن.. ألم تلاحظ أن كُلاّ منهما لم يحصل على عمل إلا بعد أن بلغ من العمر عتيا؟!

ومما دهاني حرفة أدبية
غدت دون إدراك المطالب خندقا

قال صاحبي: لقد انشغل الأيوبيون بتوحيد شطري البلاد: مصر والشام وبحروبهم مع الفرنجة في فلسطين والثغور المصرية،

ولـذلك فـإن الشـعراء الـذين سـاندوا السـلاطين والقـواد بأشـعارهم ودبجوا القصائد في مديحهم وذكروا جميل صنيعهم لم يلاقوا ما لاقاه غيرهم في عصور أخرى من تكريم وحفاوة، وعلاوة على ذلك فإن الشاعر في ذلك الزمن كان يرى أن الشعر بمثابة الشهادة العليا فلا يرضى من الأعمال إلا ما يلائم هذا المؤهل، ولذلك طال انتظارهما إلى أن وجدا من يقدر موهبتيهما وتأهيلهما..

قلت: يبدو أننا قد استنفدنا ما بين الشاعرين من تناقض وبدأنا في الحديث عن أوجه الاتفاق بينهما.. ويبدو كذلك أننا سنتحدث كثيرا عن البهاء..

قال صاحبي: فليكن.. وواصل حديثه - غير منتظر رأيي - : أرى في لغة البهاء رقة وعذوبة وأستشف عنده روحا خفيفة. إن لغته أقرب ما تكون إلى اللهجة المصرية الدارجة، وهو يعتمد الأوزان الشعرية الخفيفة ومجزوءات البحور فهل لنشأته المصرية دور في ذلك؟

قلت: لقد ولد أبو الفضل البهاء زهير في مكة وفيها ترعرع وقضى شطرا من صباه، ولذا يلقب بالمكي بالنظر إلى ولادته، والأزدي نسبة إلى قبيلته اليمنية، والقوصي بسبب معيشته في قوص فيما بعد، وكانت نشأته في مكة سببا في اكتسابه جزالة اللفظ وفصاحة اللسان، وهذا يظهر في معظم قصائد المديح، أما الرقة والعذوبة والروح المرحة فقد اكتسبها من عيشته بمصر.

ولا تنس أنه حين انتقل إلى قوص في صعيد مصر كانت مركزا ثقافيا مهما لا يقل عن دمشق وحلب والقاهرة والإسكندرية، فقد اهتم ولاتها وقضاتها بإنشاء المدارس وجلبوا لها أشهر العلماء للتدريس بها، كما أنشئوا المكتبات وزودوها بالكتب النفيسة وأقاموا الخوانق والأربطة، وكانت للعلماء والأدباء المنزلة العظمى ليس في قوص وحدها بل في كل أنحاء ممالك الأيوبيين. وفي وسط هذا المناخ الثقافي والعلمي استكمل البهاء دراسته وتخرج في مدارس قوص واختلط بأعيانها وأدبائها..

قال صديقي: مثل مَنْ؟ مَنْ أبرزُ من التقى بهم البهاء في قوص؟

فأجبت: التقى أول ما التقى بالشاعر جمال الدين بن مطروح، وهو من أهل الصعيد. ثم اتصل بحاكم قوص مجد الدين اللمطي الذي يجمعه به النسب اليمني، وقد مدحه بِسِتّ قصائد تصور تطور العلاقات بينهما..

قال صاحبي: وكيف وصل إلى وظيفة رئيس ديوان الإنشاء؟ أغلب الظن أنه لم يحصل عليها وهو قابع في بلدته قوص..

فلت له: بالتأكيد . لقد بدأت علاقة البهاء بالوظيفة منذ اتصاله باللمطي حاكم قوص فقد اتخذه كاتبا له قبل أن تحدث بينهما جفوة فيقيله، ومن ثم اتصل بالوزير صفي الدين ابن شكر الذي كانت له منزلته العظمى في التاريخ السياسي من دولة الأيوبيين، وكان وزيرا للملك العادل ثم لابنه الكامل.

لكن النقلة الحقيقية كانت عند اتصاله بالملك العادل الذي أنس إليه ووجد الطمأنينة عنده:

أمنت بلقياك الزمان وصرفه
فغيري من يخشى عليه اهتضامه

لكن المنية لم تمهله فتُوفيَ، وتولى المُلك من بعده ابنه الكامل فمدحه البهاء بقصيدته العصماء بمناسبة انتصاره على الفرنجة في دمياط التي مطلعها:

بك اهتز عطف الدين في حلل النصر
ورُدّتْ على أعقابها ملل الكفر

ثم أرسل للملك المسعود بن الكامل قصيدة يلتمس فيها أن يصبح شاعر قصره، وفيها يقول:

فيا صاحبي هب لي بحقك وقفة
يكون بها عندي لك الحمد والأجر

فاستجاب له، وكاد يطير من الفرح ولا يصدق نفسه وقد اجتمع بالملك في مجلس واحد:

وقد قرّب الله المسافة بيننا
فها أنا يحويني وإياه إيوانُ

أشــك وقد عاينته في قدومــه
وأمســح عن عينيّ هل أنا وســنان

بعد أن كانت توصد أمامه الأبواب ويحول بينـه وبين من يقصدهم الحجاب:

فمالي ألقــى دون بابــك جفــوة
لغيــرك تُعــزى لا إليــك وتنســبُ

أُرَدّ برد الباب إن جئت زائــرا
فيا ليت شعري أين أهلٌ ومرحبُ؟

لكن نجم البهاء لم يسطع كما سطع في عهد الملك الصالح نجم الدين أيوب الذي طلبه بنفسه، وأرسله في حملته لإخضاع دمشق حتى إذا أضافها إلى ملكه عيّنه كاتبا له فيها.

قال صاحبي: هذا دليل على أن البهاء كان موضع ثقة الملك الصالح..

قلتُ: هذا كان ظن الملك الصالح فيه، وقد أثبت البهاء أنه عند حسن ظنه، فقد حفظ له التاريخ موقفا هو الغاية في النبل والوفاء والتضحية..

تعلم يا صديقي أن الشام ما فتئت تنضم تارة إلى مصر وتنفصم تارة أخرى بحسب قوة الحاكم الشامي وضعفه، ففي محاولة من الملك الناصر لاستعادة دمشق من الملك الصالح التقى الجيشان في

نابلس وهُزِم الملك الصالح وفرّ مَنْ معه حتى لم يبق منهم إلا أقل من المائة كان من بينهم البهاء، وتم الصلح بين الملك الصالح وابن عمه الناصر على أن تبقى مصر للصالح وتعود الشام للناصر، فعاد الملك الصالح إلى مصر - وكان ذلك في سنة 637هـ - وأعاد البهاء لخدمته وحظي عنده بأعلى منزلة ووَلاّه ديوان الإنشاء، فصار يقرأ الكتب الواردة على السلطان ويكتب أجوبتها..

قال صاحبي: هذا يعني أنه قد حصل على هذه الوظيفة المرموقة ذات المرتب المجزي وقد بلغ السادسة والخمسين من عمره، فكيف مات فقيرا بعد ذلك؟ هل أحيل على التقاعد بعدها بقليل؟

ابتسمت وأنا أتأمل الفضول يشع من عيني صديقي، وقلت له: لقد بقي البهاء في خدمة الملك الصالح حتى سنة 647هـ وهي السنة التي توفي فيها الملك - أي ما يقرب من عشر سنوات - لكنه مع الأسف صرفه من خدمته قبل وفاته بفترة قصيرة!

قال صاحبي – وقد فغر فاه دهشة – أمِنْ جناية؟!

قلت لصاحبي: هاهنا دليل آخر على ما يتمتع به البهاء من خلق كريم.. لقد كانت غلطة من موظف في دار الإنشاء، لكن البهاء كان المسؤول عن الدار ولذلك رأى أن يتحمل الخطأ بنفسه ولا يحمله المتسبب فيه مباشرة!!

قال صديقي الفضولي: عجّل علي بالتفاصيل بالله عليك!

قلت له: حسنا.. وَرَدَ على الديوان كتاب من الملك الناصر، وأعدّ البهاء الرد على لسان الملك الصالح وأدخله عليه ليعتمده ويمضيه، فلما قرأه علّقَ عليه بخط يده موجها الشرح للبهاء: "أنت تعرف قلة عقل ابن عمي فاكتب له ما يعجبه".. كان البهاء ساعتها مشغولا فلم يتنبه إلى شرح الملك فدفع الكتاب إلى مساعده - إبراهيم بن لقمان - فختمه وأرسله مع أوائل النجائب، ولم يستطع أحد اللحاق بها لاستعادة الكتاب قبل وصوله إلى المرسل إليه، فقامت قيامة الملك وغضب على البهاء ولم يقبل عثرته ولا اعتذاره..

قال صديقي: لقد جنت عليه وظيفته.. فما عمل بعد ذلك؟

قلت: تعرف أن وفاة الملك الصالح كانت إيذانا بسقوط دولة المماليك في مصر، فاتجه إلى الفرع الشامي منها الذي ما زال باقيا، فراح يمدح الناصر يوسف ملك دمشق يعرض عليه بضاعته ويطلب مقابل ذلك إمارة:

وبعض عطاياه المدائن والقرى فمن ذا الذي في ذلك البحر يسبح

ولما لم يفلح في مقصوده نظم قصيدة أخرى خفض فيها سقف مطالبه إلى أدنى حد فأخذ يشكو ما يلقاه من البؤس والفاقة هو وأطفاله ونسوته ويأمل من ممدوحه أن يلقى منه ما يعينه على نوائب الدهر.. يقول من هذه القصيدة:

ولولا أمور ليس يحسُنُ ذكرها
لكنتُ عن الشكوى أصدّ وأصدفُ

ونفسي - بحمد الله - نفس أبيّة
فهــا هي لا تهفــو ولا تتلهّـــــف

ولكنّ أطـفالا صــغارا ونسوة
ولا أحــدٌ غيري بهـــم يتلَطّــف

أغار إذا هبّ النســيمُ عليهمُ
وقلبي لهم من رحمــةٍ يترَجّــف

سروريَ أنْ يبدو عليهم تنعُّمٌ
وحزنيَ أنْ يبدو عليهمْ تقشُّــف

ومع ذلك لم يرقّ له قلب يوسف، فاتجه في محاولة أخيرة إلى الملك المنصور ومدحه وكان ذلك سنة 656هـ وهي السنة التي توفي فيها، وفيها يقول:

لعل الذي في أول العمر فاتني تعوّضُنيه أنتَ في آخر العمر

ولم يتحقق له ما كان يأمل فظل على بؤسه إلى أن مات..

قال صاحبي - وقد رق قلبه وخفت صوته - : ما أسوأ البؤس بعد النعمة والفقر بعد الغنى والذلة بعد المعزة!

قلتُ: صدقتَ يا صاحبي.. لقد قضى عشر سنوات في خدمة الملك وخرج منه صفر اليدين لأنه كان موظفا نزيها.. لقد عُرف عنه أنه

لم يتوسط عند الملك لأحد إلا بالخير ونفع خلقا كثيرا بشفاعته الحسنة لكنه لم ينفع نفسه!!

قدّمتُ لصديقي كأسا من الماء البارد، وتناولت لنفسي مثله، وقلت له: فلنخرج من هذا الباب إلى أغراض شعره المختلفة ونقرأ نماذج من شعره البديع.

قال: إليك ذاك..

قلت: لقد طرق البهاء معظم أغراض الشعر المعروفة فكانت له قصائد جميلة في مديح ملوك الدولة الأيوبية وأمرائها وأعيانها، وهو مديح تقليدي يبدؤه عادة بالغزل الذي يَعُدّ الابتداء به كالنافلة قبل المكتوبة:

مهّدتُ بالغزل الرقيق لمدحه وأردتُ قبل الفرض أن أتنفلا

وأكثر مديحه يتضمن أغراضا أخرى، كطلب القرب من مجالس ممدوحيه، أو الاعتذار عما بدر منه في حقهم، أو التلميح بطلب وظيفة أو ولاية أو حتى لقمة عيش..

ومما نراه لا يكاد ينفصل عن قصائد المديح عنده الفخر بنفسه وبشعره خاصة، هاهو ينهي إحدى مدائحه مدعيا أنه أفضل من زهير بن أبي سلمى ومن حسان بن ثابت:

هذا زهيرك لا زهير مزينة وافاك لا هرما على علاته

دعْـــهُ وحولياته ، ثم اســـتمع لزهير عصرك بعضَ ليلياته

لو أُنشِدتْ في آل جفنة أعرضوا عــن ذكر حسّانٍ وعن جفناته

فإذا انتقلنا إلى الرثاء فسنتوقف عند ظاهرة قد تبدو غريبة نوعا ما.. فعلى كثرة ما مدح من الأمراء والملوك لم يرثِ واحدا منهم، بل كانت كل مراثيه لأصدقائه.. هل يمكن أن تكون مدائحه بهدف استجداء المناصب، ومناسبة الرثاء لا تصلح لهذا الهدف؟ هل يمكن أن يكون تسريحه من عمله من قبل الملك الصالح مانعا له من رثائه؟!

قال صديقي – في انفعال واضح - : أين الوفاء الذي كان يتغنى به؟ أليس هو القائل:

تعال فعاهدني على ما تريده فإني مليء بالوفاء زعيم

قلت: حتى لا نسيء الظن به لِنَقُل إنه من الذين يؤمنون بأن الرثاء لا يجدي ولا يرد غائبا، استمع إلى فلسفته في الموت - وهو معنى مأخوذ من أبي نواس - :

وما الناس إلا راحل وابن راحل
إلى العالم الباقي من العالم الفاني

وإلا فأين الناس من عهد آدم
ومن عهد نوح ثم منه إلى الآن؟

أو لنقل إنـه مـن الـذين تغلـب عليهم العاطفـة إلـى حـد عقد اللسـان! أتدري أنه لم يرثِ أقرب أصدقائه إليـه وهـو ابـن مطـروح، مـع أنـه كان قد طلب منه أن يرثيه إن مات بعدما استمع إلى أبيات قالها في مرضه؟!

ورثاء البهاء فيه رقة غير معهودة:

أبكـيك بالشــعر الـذي قد رق حتى صار دمعا

وله معنى يكرره في معظم مراثيه، وهو استنكار بقائه بعد المرثي، ويرمي نفسه لذلك بالغدر:

ومالي أدّعــي أنــي وفي؟! ولست مشاركا لك في بلاكا

تموتُ وما أموتُ عليك حزنا وحق هواك خنتك في هواكا

قال صديقي: أما الهجاء فقد عرفنا أنه لم يهج أحدا حتـى مـن الـذين لم يحققوا له رغبة أو طلبا..

قلت: إنه لم يهجُ شخصا بعينه، وكل ما قاله فـي الهجـاء لا يعدو أن يكون هجاء لـبعض نمـاذج مـن المجتمـع يـأتي علـى رأسـها الـثقلاء، كما في قوله:

يا ثقيلا ليَ من رؤ يتــه هـمّ طويـلُ

وبغيضا هو في الحلـــق شجى ليس يزول

كيف لي منك خلاص أين لي منـك سبيل

حار أمري فيك حتى لست أدري ما أقول

أنـت واللـه ثقيـل أنـت والله ثقيـل!!

قلت لصديقي: حسنا.. فلننتقل إلى الوصف فإنه من المجالات التي تناولها البهاء كثيرا، وبخاصة وصف مصر وكل شيء فيها.. لقد وصف النيل وأمواجه والمراكب والأشجار والأزهار وتراب مصر وحصباءها، كما وصف مجالس لهوها وما يحيط بها من طبيعة وخلصاء وندماء وما يقدم فيها من طعام وشراب ولحن وغناء وسقاة وطهاة..

هنا قاطعني صاحبي وقال: أظن أنه في هذا المجال سترقُّ لغته وتخفُّ أوزانه؟!

قلت: صحيح.. لم يعتمد البهاء البحور التقليدية واللغة الرصينة إلا في المدح والرثاء، أما ما عدا ذلك فكانت بحوره راقصة ولغته رقراقة.. استمع إليه وهو يصف يوما من أيام اللهو على النيل:

حبذا دور على النيـــــــل وكاسات تدور

ومسرات تموج الـــ أرض منها وتمور

وقصور ما لعيش نلته فيها قصور

كم بها قد مر لي أســـــــتغفر الله سرور

كل عيش غير ذاك الـــعيش في العالم زور

منزل ليس على الأر ض له عندي نظير

اهتز صاحبي طربا وقال: ما أجملها من أبيات وما أسلسها من لغة وما أرقها من موسيقى.. لقد لاحظت اعتناءه بالبديع وبخاصة الجناس..

قلت لصديقي: هذا صحيح.. لقد شغف البهاء بالبديع من جناس وطباق وتورية وتضمين واقتباس، وهو يعد البديع أهم ما يزين قصائده:

وما ضاع شعري فيكم حين قلته بلى وأبيكم ضاع فهو يضوع

أحب البديع الحسن معنى وصورة وشعري في ذاك البديع بديع

وهو يعد الجناس خاصة مما يحسن القريض:

وإن بدأ النعمى تلاها بمثلها فتزداد حسنا كالقريض مجنّسا

قال صديقي: أراك تخفي شعره الغزلي تماما.. لقد كانت تشدني في صباي أغنية جميلة لمطرب كويتي من كلمات البهاء يقول فيها:

وقائـــلة لمـــا أردتُ وداعـــها:
حبيبـي , أحقـاً أنـت بالبيـن فاجـعـي

فيارب لايصدق حديث سمعته
لقد راع قلبي ما جرى في مسامعي

وقامت وراء الستر تبكي حزينةً
وقد نَقَبْتُه بيننا بالأصابع

بكت فأرتني لؤلؤاً متناثراً
هوى فالتقته في فضول المقانع

ولما رأت أن الفراق حقيقةً
وأني عليه مكرهٌ غير طائع

تبدَّتْ فلا والله ما الشمس مثلها
إذا أشرقت أنوارها في المطالع

تسلم باليمنى علي إشارةً
وتمسح باليسرى مجاري المدامع

وما برحت تبكي وأبكي صبابةً
إلى أن تركنا الأرض ذات نقائع

ستصبح تلك الأرض من عبراتنا
كثيرة خصب رائق النبت رائع

قلت لصديقي: لقد أبدعت في اختيار النموذج، فهي أبيات ذات موسيقى عذبة أهّلها لأن تُغَنّى.. لكن ألم تلاحظ أنها من بحر الطويل، هذا البحر التقليدي..

ولم يمهلني صديقي لأكمل عبارتي فقال: وما ذا في ذلك؟

قلت: هذه مجاراة لشعر عمر بن أبي ربيعة الغزلي حتى في أسلوبه الحواري القصصي، وكأنه يريد أن يقول إنه ليس أقل شأنا منه لا في شعره ولا في نزواته!!

قال صديقي: استنتاج جميل.. أتريد أن تقول إن البهاء لم يكن له موقف محدد من المرأة والغزل، وأن ما يقوله في مجال الغزل محض تقليد؟

قلت لصديقي: لقد مرّ بنا قوله إنه يتخذ الغزل نافلة للمديح، ومعظم موضوعات غزله موضوعات تقليدية كذكر الفراق والوداع والرسول والعذول والرقيب، وهو ليس له موقف ثابت من المرأة فهو يتردد تارة بين البيضاء لأنها كالحق:

الحق أبيض أبلج والحق أولى ما اتبع

وتارة ينفر من البياض لأنه لون البهق:

السمر في لون اللمى والبيض في لون البهق

وتـارة يريـد المـرأة طويلـة، وتـارة يريـدها معتدلـة القـوام، وهـو لا يمانع من القصيرة في ملاحة:

وما ضرها ألأ تكون طويلة إذا كان فيها كل ما يطلب الإلف

وباختصار فهو مشغوف بكل مليحة مهما كانت أوصافها:

وإني لمشــغوف بكـل مليحـــة
ويعجبني الخصر المخصّر والردف

قال صديقي: لقد أطلعتني على نماذج جميلة من شعره الغزلـي وإن كان تقليديا..

قلت: دعني أريك قصيدة لـه من مجزوء الرمل تصلح لأن تكون أنموذجا لقصائده الخفيفة:

يا قضيبا من لجين يا مليح المقلتين

كل ما يرضيك عندي فعلى رأسي وعيني

ما لقلبي منك يا بد ر سوى خفي حنين

ويرى الحساد أني منك ملآن اليدين

التفـت إلـيّ صـديقي وقـال لـي: مـا أجملهـا مـن أبيـات نختـتم بهـا موضوع الغزل، فإلى أين سننتقل؟

قلت له: سأنهي هذا الموضوع بعرض لشعره الظريف الذي تشع منه روحه المرحة وتظهر فيه الأمثال والمفردات المصرية..

انظر إلى وصفه المرؤوسين الذين لا يقدرهم رؤساؤهم بمن يرقص في الظلام:

يا أيها الباذل مجهوده في خدمة أُفٍّ لها خدمه

إلى متى في تعب ضائع بدون هذا تأكل اللقمه

تشقى ومن تشقى له غافل كأنك الراقص في الظلمه

وخذ الحكمة منه وهو يقارن بين (اليك) و(الشيش) أي الواحد والستة في مصطلحات النرد:

فاليَكُّ في النرد وهو محتقر خير من الشيش عند حاجته

والمصريون يضربون المثل بـ (الفاتحة) أي فاتحة الكتاب الكريم لما يحفظ بتمَكُّن، وفي هذا المعنى يقول:

وغادة بوصلها مسامحه تحفظ ودي مثل حفظ الفاتحه

واستمع إلى هذا البيت ولا أظنك تستطيع أن تكتم ضحكتك:

رأيتك قد عبرتَ ولم تسلم كأنك قد عبرت على خَرابَهْ!!

وكما توقعت أطلق صاحبي ضحكة مجلجلة، ونظر إليّ وكأنه يريد المزيد، فقلت له: استمع مني إلى هذه الأبيات، وقل من أي بحر هي؟

يا مَنْ لعِبت به الشمولُ ما ألطف هذه الشمائلْ

نشـــوان يهـزّه دلالٌ كالغصن مع النسيم مائل

لا يمكنه الكلام لكن قد حمّل من طرفه رسائل

ما أطيب وقتنا وأهنا والعاذل غائب وغافــل

أطرق صاحبي مليّا، ثم قال: من أين أتى بهذا الوزن؟ كأنه ليس من بحور الخليل!!

قلت له: نعم. هذا من أوزان الشعر الفارسي يسمى (الدوبيت) نُقِل إلى الشعر العربي على يد المولدين والمحدثين، ووزنه:

فعْلن متفاعلن فعولن فعلن متفاعلن فعولن

والآن دعني – يا صديقي - أختم حواري معك بما نُقِل عن البهاء أنه كان آخر ما خطه بيده:

ما قلتَ أنت ولا سمعتُ أنا هذا حديث لا يليق بنا !!

إن الكرام إذا صحبتهمُ ستروا القبيح وأظهروا الحسنا

زكي قنصل

آخر الشعراء المهجريين

كثيرا ما قرأنا وسمعنا أن فلانا عصامي.. لكن مثل هذا الشاعر لم أقرأ عنه، ولم أسمع!!

وكثيرا ما سمعنا أن هذا الشاعر المعاصر ينتمي إلى زمن غابر، وأن في شعره جزالة المتقدمين.. لكن ليس في جزالة شعر هذا الشاعر ولا في حكمته ولا في فصاحة أسلوبه وسمو معانيه!!

اقرؤوا معي سيرته ثم شيئا مما اخترته لكم من شعره الغزير واحكموا بأنفسكم فقد أكون بالغت بعض الشيء!!

ولد الشاعر زكي قنصل سنة 1916 في الأرجنتين، وانتقل سنة 1922إلى (يبرود) في سوريا موطن والديه حيث تلقى مبادئ القراءة والكتابة، ثم اضطر إلى ترك المدرسة ليساعد والديه في كسب القوت الضروري للأسرة التي كانت في تزايد مستمر لعدد أفرادها!!

وفي سنة 1929نزح مع والده إلى البرازيل حيث كان قد سبقهما إليها أخوه الأكبر الشاعر إلياس قنصل ومن هناك انتقل الثلاثة إلى الأرجنتين ليعملوا في تجارة (الكشة) وهي عبارة عن صندوق يُملأُ

بالخردوات والمستلزمات يشد إلى المنكبين بأحزمة ينطلق بها صاحبها في الشوارع مناديا على بضاعته بشيء من التشويق أساسه حنجرة قوية وصوت هادر !!

وقد أنِس الفتى في نفسه الميل إلى المطالعة، فكان يدس في كشّته كتابا يلتهمه أثناء استراحته، وربما عاد إلى البيت وليس في جيبه ريال واحد ولكن ذهنه ملئ بخاطرة أو هاجس يقض عليه مضجعه!!

ترك الكشة ليمارس عددا من الأعمال البسيطة مثل خادم مطعم أو معاون خباز أو ماسح أحذية..

وفي سنة 1935أصبح شقيقه إلياس رئيسا لتحرير الجريدة السورية اللبنانية – التي كانت تصدر يوميا باللغتين العربية والإسبانية - فعمل معه في إدارتها إلى أن نشأ بينه وبين صاحبها خلاف فتركها وعاد إلى العمل بالتجارة..

وفي عام 1950تزوج من فتاة سورية وكانت باكورة زواجهما طفلة أسمياها (سعاد) توفيت في الشهر الثامن من عمرها فبكاها في ديوان كامل نشره باسمها، ثم جبر الله قلب الوالدين بطفل أسمياه (عمر) تيمنا باسم الخليفة الثاني وبالشاعر عمر أبي ريشة الذي كان وزيرا مفوضا لسوريا في الأرجنتين، وكانت تربطه بشاعرنا صداقة متينة.. وقد تخصص عمر ابن الشاعر زكي في جراحة الرأس..

اهتم زكـي قنصـل بالشـعر الاجتمـاعي وشـعر الحنـين إلـى الـوطن، وصـوّر حياة الفقراء، وتأثر بشعراء المهجر الذين سبقوه.. بل إنـه – كما يقول عنه الأستاذ عبد المقصود خوجة – يمثل البقيـة الباقيـة من مدرسة شعراء المهجر..

توفي شاعرنا في سنة 1994

وله ثمانية دواوين هي:

1- شظايا 1939
2- سعاد - دمشق 1953
3- نور ونار - دمشق 1970(ط2 1972 بوينس أيرس)
4- عطش وجوع - دمشق 1974
5- ألوان وألحان - الأرجنتين 1978
6- هواجس - ليبيا/تونس 1981
7- في متاهات الطريق - دمشق 1984
8- ديوان زكي قنصل ج1 1986

بالإضافة إلى مسرحية شعرية باسم "الثورة السورية " ومسرحية شعرية عنوانها "تحت سماء الأندلس".

وله دواوين أخرى طبعت عام 1995 مع بعض الدواوين السابقة تحت عنوان "ديوان زكي قنصل - الأعمال الشعرية الكاملة" في ثلاثة مجلدات وأكثر من ألف وستمائة صفحة.. أصدرها الأديب عبد المقصود خوجة على إثر استضافته في إثنينيتـه المشـهورة، إذ

حلّ زكي قنصل ضيفا على الإثنينية ليلة 1412/7/2هـ الموافق 1992/1/6 في أثناء زيارته للمملكة العربية السعودية بدعوة من وزارة الإعلام. ويأتي هذا التكريم للشاعر تتويجا للجوائز الدولية والمحلية التي حصل عليها، وهي:

جائزة إذاعة الـ بي بي سي - لندن
جائزة ابن زيدون من المعهد الإسباني العربي للثقافة - مدريد
جائزة جبران العالمية
جائزة مجلة الثقافة الدمشقية

وقد ترجم شعره إلى الأسبانية ونشر في أمهات الصحف الأرجنتينية، وتدارس شعره عدد كبير من أعلام الفكر والأدب، منهم ميخائيل نعيمة، والشاعر القروي، ونظير زيتون، ومحمد عبدالغني حسن وعبد اللطيف اليونس الذي وضع عنه كتابًا نقديًا بعنوان "زكي قنصل: شاعر الحب والحنين"، كما كتب عنه الكثير من كبار أدباء العربية في الوطن العربي الكبير..

***

والآن إلى ألوان من شعره الذي اخترته من خماسياته:

يا من يبذر في الملاهي ماله فرحا ويقبض كفه عن جائع

احسب حسابك للزمان فربما دارت حوادثه بأشأم طالع

يومان هذا الدهر: يوم ضاحك بالسعد ، مرتبط بيوم دامع

لا يخدعنّك أن مالك واسع كم هان قبلك ذو ثراء واسع

ولقد تمـدّ غدا يمينك راجيا إحسان هذا الجائع المتواضع

***

نشـئ بنيك على الفضيلة والتقـى
لكـن حـذار من الجمـود حـذار

العصر عصـرهمُ فلا ترهقـهمُ
بسـلاسل مـن عصـرك المنهـار

أرشـدهم باللطف تكسـب حبهـم
وازجـر ولكـن مـن وراء سـتار

حرّرت نفسك من أبيك فهل ترى
حرجـا إذا نهجـوا علـى الآثـار

أشـقى الجنـاة أب يغـلّ بجهلـه
فـي وُلـده حـرية الأفكـار !!

***

بيــن التعصــب والتديــن فجـوة
لا تنتهــي وحواجـز لا تغلــبُ

هذا هـو الغيــث الذي يحيــي ولا
يؤذي وذاك هو الســحاب الخُلّب

الديــن نــور والتعصـب ظلمــة
أيخــاف نور الشمس إلا المذنب

من كـان يملي بالهـراوة رأيــه
لــم يلــق في جلســائه من يكتــب

يا صاح لا تصل الضلالة بالهدى
إنّ التقــيّ الحــقّ لا يتعصـــــب

***

ماذا تفيـدك من دنيــاك مدرســة
إن كنت عن مدرسات الدهر في شغلِ

مكاتب الأرض لا تغني بأجمعها
عمــا تطــالعه فــي سِــفره الأزلــي

ليس الذي يتلقى الدرس في ورق
مثــل الذي يتلقــى الدرس بالعمـل

للنصـر باب، ولكـن ليس يدخـله
إلا الألى ادرعـوا بالصـبر والأمل

يا آكل الكتــب لم تعثـر بمشـكلة
لـو كنت تقرأ في الأرواح والمقل

***

قالوا صف الشعر قلت الشعر عاطفة
مهما تضــارب في تعريفه البشر

واللفظ ثـوب فمـن يحسـن صـياغته
تراقصت في يديه الزّهر والزّهرُ

لا تسـتوي دمعــة الباكي على ألــم
ودمعــة لحســاب الأجــر تنهمـر

البلبــل المتغنــي شـــاعر غـرد
أمــا المقلــد فهــو الواغـل الهدر

فاتبــع هواك ولا تعبــأ بفلسـفة
تريد حصــرك فيما ليس ينحصر

***

ارحـم فؤادك من حقـد يعيث بـــه
فالحقـد نار وأنـت الشـيح والحطـــبُ

لا شيء كالحب يجلو صدر صاحبه
لو ساد في الناس مات الخوف والرهب

إني لأعجـب ممـن لا يحـب أخا
وليـس يعجبـه فـي جـاره العجـــب

تميز المرء بالأخـلاق لا حسـب
يجـدي - إذا هي شـانته - ولا نسـب

هيهات يفلح من شاهت سـريرته
لم يأخذ العيـنَ - لو لم يلمع – الذهـب

***

سـمعت مصـليا يعـظ البغايـــا
وينهـى النـاس عـن عمـل القبيـحِ

تهـدُّج صـــوتهِ نغـم شـجيُّ
يرافـق دمعـــة الجفـــن القريـــح

فأكبـرت التقـى ورأيـت فيـه
شـهيـدا مـــن تلاميـذ المســـيح

ولكــن لـم يجـنّ الليـل حتــى
ســعى للحـــان يبحــث عن مليح

فلــم أر قبل وعظتـــه هديــلا
يحـوله الظـــلام إلـــى فحيـــح!!

***

حمد العسعوس

الشاعر الوديع

في عام 1955وفي محافظة (حرمة) على مسافة تقل عن مائتي كيلو متر من العاصمة الرياض وُلِد حمد بن أحمد العسعوس الخالدي..

كانت حرمة آنذاك قرية وادعة تتبع لإقليم (سدير). في ربوعها نشأ، وفي مدرستها تعلّم، وفي متدياتها برع..

بدأت مواهبه وهو ما زال صبيا على مقاعد المدرسة الابتدائية بحرمة، فكان يشارك في الاحتفالات التي يقيمها الأهالي والمدرسة ونادي الفيصلي فيما بعد.. وهذا ما أنضج موهبته الخطابية والشعرية مبكرا.

في عام 1966 انتقل إلى الرياض والتحق بمعهد إمام الدعوة العلمي وشارك في نشاطات المعهد المختلفة.

وفي عام 1972 التحق بكلية الشريعة بالرياض، ولظروف مادية اضطر لمواصلة دراسته عن طريق الانتساب بعد مضي سنة من التحاقه بالجامعة وتخرج منها في عام 1976

توزعت حياته العملية بين العمل في القطاع الحكومي والقطاع الخاص حتى انتهى به المطاف إلى مجلس الشورى حيث يعمل حاليا.

لـه إسـهامات منـذ فتـرة مبكـرة فـي الصـحافة الأدبيـة نقدا وتحلـيلا ودراسة، ونشر الكثير من قصائده عبرها، وشـارك فـي العديد من الأمسيات الشعرية داخل المملكة وخارجها.

عمـل لفتـرة مـن الـزمن مشـرفا علـى الصـفحة الأدبيـة فـي جريـدة البلاد، كما عمل في النادي الأدبي بالرياض لمدة سنتين..

في عام 1986صدر أول ديوان لـه وكـان بعنـوان: (دوائـر الحـزن والفرح) ثم توالت دواوينه الخمسة التالية:

خطاب لوجه البحر 1993

بعض الفصول 1997

ثلاث غيمات 2003

وطن من ذهب 2003

رسائل الفصل الأخير 2009

منـذ معرفتـي بالشـاعر حمـد العسـعوس وأنـا ألقبـه بالشـاعر الرقيـق حتى اطلعت على لقب آخر منحه إياه الأديب عبد الله بن إدريس إذ أسـماه - فـي تقديمـه لديوانـه (دوائـر للحـزن والفـرح) - الشـاعر الوديع، وكل من عرف حمد يعرف أنـه إنسـان رقيـق ووديـع، ولا أدل علـى ذلـك مـن أنـه لـيس لـه خصـوم وبالتـالي ليسـت لـه قصـائد هجاء!!

كنت عنده ذات مساء في غرفة المكتب بمنزله وهو ينبش في أوراق قديمة فعثر على ورقة سرعان ما تناولها ومزقها..

قلت له: ما هذه؟

قال قصيدة هجاء كنت كتبتها في موقف ما!!

وأسماه صديقنا المشترك عبد المجيد الفلاح - أبو غسان - (نهر بلا ضفاف) وذلك بالنظر إلى انسياب إبداعه وتدفقه دون حدود!!

ومما يميز حمد أنه لا يعتد برأيه، فكثيرا ما أخذ برأي مستمعي قصائده لحظة ولادتها، وكثيرا ما عدّل بناء على ذلك، بل إنه قد يحكم على قصيدته بالإعدام إذا وجد أنها غير قابلة للإصلاح!! ومن خصائصه التي لها صلة بما ذكرت أنه كثيرا ما ينسى قصائده في أماكن ولادتها ولا يعثر عليها - إن عثر - إلا بعد زمن ولذلك فدواوينه الستة لا تمثل شيئا مما كتب مقارنة بغزارة إنتاجه وعفوية ولادة القصيدة لديه!!

وحمد شاعر مجيد طرق ألوان الشعر كلها الفصيح والعامي والعمودي والحر لكنني أحسبه يجد نفسه - كما أجده - في الشعر التقليدي أي العمودي المقفى - فهو في هذا المجال لا يجارى، ومع ذلك يعترف في تواضع شديد بأنه ليس قادرا على كتابة قصيدة النثر.. وهو ليس متحيزا للون شعري دون آخر فيعترف بانتماء كل الصيغ والألوان واللغات إلى الشعر، بل إنه ليدعو إلى

المصالحة بين أشكال القصيدة إذ يقول في مقدمة ديوانه (ثلاث غيمات) ما نصه:

"هذه المجموعة الشعرية دعوة للمصالحة بين أشكال القصيدة، فالغيمة الأولى تضم قصائد عمودية فصيحة، والغيمة الثانية تضم قصائد فصيحة من الشعر الحديث، والغيمة الثالثة تضم قصائد عامية من الشعر الشعبي.. ولو كنت قادرا على كتابة قصيدة النثر لأضفتها إلى هذه التشكيلة وسميتها أربع غيمات بدلا من ثلاث"..

وهو زاهد في الشهرة أيما زهد، بعيد عن الأضواء.. ولذلك كانت مشاركاته في المهرجانات الشعرية والمناسبات قليلة مقارنة بغيرة من الذين لا يدانون شاعريته، وقليلا ما عبر عن حقه المهضوم كما في قصيدته (الجنادرية) وهي المهرجان السنوي الذي يدعى إليه الشعراء والأدباء من كل حدب وصوب:

نبني القصائد من ماء ومن حجر
حتى غدا الشعر ماء ضخه الحجر

دعوتِ من كل صوب شاعرا غردا
وشاعر الحي قد أودى به الضجر

وتتنوع أغراض شعره بين القصائد الوطنية والقومية، والقصائد الإخوانية والأسرية، ثم تأتي بعد ذلك قصائد المناسبات - ومن أوفر المناسبات حظا الرثاء - ثم وصف الطبيعة والأماكن

السياحية التي زارها، إلى جانب قليل من شعر الغزل وشعر الموعظة والزهد..

وإلى جانب هذه الأغراض التقليدية يبرز غرضان آخران احترت في تسميتهما، أما الأول فهو حديث النفس بتجرد وواقعية خاصة حينما يكون الحديث مع فتاة ربيعية وهو الذي أوغل في الخريف!!

وليس أوضح من شاهد على هذا الغرض من قصيدته المعنونة بـ (السؤال) والتي مطلعها:

ليلى تسائلني أن أعزف الوترا
وفي دروب الهوى أن أنثر الدررا

وفيها يقول:

ليلى أرى الركب قد ناءت قوافله
والعمر كالشمس نحو الأفق منحدرا

هذا سؤالك والخمسون تائهة
كالنجم في أفق الظلماء قد ظهرا

ليلى أعيدي إلى ليلي كواكبه
وأشعلي من شموعي كي أرى الحفرا

هزي إليك بأغصاني وأوردتي
فقد تساقط أشجاري لك الثمرا!!

وأمـا الغـرض الآخـر غيـر التقليـدي فهـو نظرتـه إلـى القصـيدة ورسالتها وأهدافها وعيبـه علـى من يخرجها عن سياقها الإبداعي فيجعلها وسيلة للتزلف والتكسب..

يقول في قصيدة بعنوان (المسيرة العمياء):

يا شعر عفوك من هوى متزلف يضع القوافي في بحور رياء

ويحـط بالأعتـاب يبسـط كفـه متسـولا بالشـعر دون حيـاء

ولشاعرنا الكثير من القصائد التي تحكي ما يريد هو من القصيدة كأن تكون مشحونة بالعواطف الصادقة حتى تكون قوية متماسكة وأن لا تأتي مجاملة للشاعر بحكم ما بينهما من مودة وألفة، بل إنه ليطلب منها المقاومة لو أراد (اغتصابها).. يقول من قصيدة عنوانها (القصيدة) يفتتح بها ديوان (بعض الفصول):

تطهري من أذى ضعفي ووسوستي
ومن ريائي ورجس الحقد والحسد

إذا أتيتِ .. فلا تأتي مجاملة
لخاطري واهطلي في القاع كالبرد

وأرعدي في سمائي واسكبي مطرا
على الأنام وفيضي مثلما الزبد

إذا اغتصبتك يوما فارفضي طلبي
وقاومي طمعي في المجد وانتقدي

وإن طربتُ فجيئي وارقصي طربا
ورفرفــي في الدنــا كالطائر الغرد

وإن حزنتُ خذي من أضلعي حطبا
وأوقدي النار في الأعضاء واتقدي

والصدق في القصيد والإخلاص للقصيدة منهج التزم به في قصائده الوطنية.. هاهو يلقي أمام خادم الحرمين الشريفين قصيدة (مليك القلوب) فلا يطلب لنفسه شيئا، وإنما يجعل من قصيدته مطالب (معاريض) باسماء المحتاجين إلى أي نوع من أنواع المعونة:

يا مليك القلوب أوصيك خيرا بفقيرٍ الجوعُ عضَّ صغاره

يا مليك القلوب أوصيك خيرا بسجينٍ الدينُ طوّق داره

يا مليك القلوب أوصيك خيرا بيتيـمٍ حقوقــه مســـتعاره

وبــأم ترمــلت وهي حبلى سقط السقف فوقها في مغاره

وبشـيخ جــار الزمان عليه فاقدٍ عطـفَ أهله أو دياره

وفــي قصـيدته أمــام صــاحب السـمو الملكــي الأميـر سـلطان بـن عبدالعزيز يتبين إخلاصه وصدقه مع ولاة الأمر، إذ يقول:

يابن عبد العزيز أهديك نصحي في زمــان النفــاق والادعاء

ليس يجــدي تواكــل وارتجــال وصــراخ من زمــرة الشعراء

البيانــات لا تعـــيد حقـــوقا والشــعارات ميــزة الجبنــاء!

وله العديد من القصائد التي يتغنى فيها بموطنه (المملكة العربية السعودية) ومدنها وقراها مثل حائل وأبها ومسقط رأسه (حَرْمة)..

وفي الرياض له أكثر من قصيدة لعل أشهرها قصيدة (المهرة النافرة) بمناسبة اختيار الرياض عاصمة للثقافة.. لكنه أكثر ما يرتفع صوته بأغاني الحنين إلى الوطن حين يكون في الغربة مثل قصيدته (وطن من ذهب) التي قالها في أثناء وجوده في العاصمة البريطانية لدراسة اللغة:

مر شهر.. ولا الأرض أرض

ولا في الهواء.. هواء

لم أجد لذة العيش فوق موائدهم..

لم أجد لذة الدفء فوق وسائدهم..

لم أجد واهجا في الوجوه

لم أجد سلوة في الطرب

كيف أصبحت يا وطنا من ذهب؟!

.....

كيفَ حالُ أهالي الرياض؟..

كيف حال شواطئ جدةَ – يا وطني –

كيف حال ربوع الشّمال؟

كيف حال جبال عسيرْ؟

كيف حال نخيل الهفوف؟

فعنْ كل ما فيك تحرقني نار أسئلتي..

.....

لربيعك - يا وطني - نكهةٌ لم أجدْ مثلها..

لترابك عطرٌ يراودني..

لحدودك سحر ينازعني خطوتي..

أنتَ فجرٌ.. وعطرٌ.. وسحرٌ..

ودالية من لذيذ العنب..

فكيف ربيعك يا وطنا من ذهب؟!

***

وإذا انتقلنا إلى القصائد الإخوانية فنجد الكثير من القصائد التي قالها مجاراة لقصائد زملائه وأصدقاء حرفه كما في مجاراته للدكتور كمال بدري - رحمه الله - والدكتور إبراهيم العواجي، وأصدقائه الشعراء عبدالله الزيد وعبد الاله البابطين ومحمد الدبيسي وغيرهم..

ولشاعرنا قصيدة موجهة للراحل الدكتور غازي القصيبي رحمه الله بعنوان: (أمير القوافي) يقول فيها:

وأنتَ لأحلى بنات القصيد أسيرُ الهوى يتخذنك زيرا

إذا ما أمرت القصائد تهمي وتلبس أسورة وحريرا

وإن كان للشعراء أمير فقد نصّبتك القوافي أميرا

ويندرج تحت الإخوانيات قصائده الرثائية فهو يكتبها بلغة إخوانية حميمية مهما علا شأن المرثي كما في مرثيته للدكتور حسن ظاظا رحمه الله وكما في قصيدته المعنونة بـ (سيد الحكماء) التي يرثي بها الشيخ محمد الجبير رحمه الله - رئيس مجلس الشورى السابق - والتي مطلعها:

لله أرفع لوعتي وعزائي في سيد العقلاء والحكماء

وفيها يقول:

وتراه في أعلى المناصب باسطا كفيــه وهو بهيئــة البســطاء

وترى التواضع في بسيط ثيابـه لم يســتجب لغريــزة الخيلاء

لبس الفضــيلة مشــلحا وعمامة والفضل لا يكسو سوى النبلاء

ومن أجمل قصائده الإخوانية القصيدة المهداة إلى الشاعرة الكويتية الدكتورة سعاد الصباح والتي عنونها بـ (دانة الخليج) يقول في مطلعها:

يا سعاد الصباح أنت صباحي ورياحي وجذوتي وصداحي

أنت كالرمح ليس يثنيه خطب فانهضي يا رواء كل الملاح

أنتِ روح القصيد لو كان يدري لارتمى تحت وردك الفــواح

إلى أن يقول:

يا سعاد الصباح كنت خجولا أكتم الحب عن ذوات الوشاح

فتعلمتُ منــك كيــف أنــادي أنّ حــب النساء زادي وراحــي

يا سعاد الصباح كنت بليدا وأسيرا لوحدتــي ونواحي

فتعلمت منك كسر قيودي وتعلمــت منـك ســر النجاح

وإذا انتقلنا إلى القصائد الأسرية فسنجد أن حبّ حمد لأسرته قد ملك عليه شغاف قلبه حتى إننا لنعجب كيف تبقى من هذا القلب مساحة كافية لحب أصدقائه وزملائه ونظرائه من الأدباء علاوة على رموز مجتمعه والذي أنهيت الحديث عنه فيما تقدم.

ففي دواوينه الكثير من القصائد الموجهة إلى - أو التي تتحدث عن - أحد أبنائه أو إحدى بناته لكنه يخص (أم أيمن) رفيقة دربه فيهديها ديوانه الأخير(رسائل الفصل الأخير) ويتوج قصة الكفاح بقصيدته (المسرحية) التي يستعرض فيها مسيرة ثلاثين عاما من الحب والتضحية والعطاء في ثلاثة مشاهد: يتناول المشهد الأول مسيرتهما في تكوين أسرتهما، وفي المشهد الثاني يتحدث عن الحركة اليومية لأسراب الطيور المنزلية وهي تطير في ساحة القلب فيقول:

إنهم كائنات من الطير

لكن أسماءهم كالبشر

في المساء ينام الصغار

كنوم الفراشات بين الزهور

يستسلمون لأحلامهم.. فجأة

وأرواحهم في الفِناء.. تدور

يظل صدى حلو أصواتهم

يوشوشنا كالوتر!!

في الصباح تضيئ عيون الفراش

واحدا.. واحدا

ينزلون على وردة القلب

ينزلون لواحاتهم كالمطر

يبدأ اللهو قبل تناول كأس الحليب!!

وفي المشهد الأخير يتحدث عن سر النجاح في الحياة الزوجية الطويلة وكأنه يبعث رسالة إلى أبنائه من بعده:

حبيبة قلبي..

رفيقة دربي..

تعالي نعلم أبناءنا.. أن النقاء

بملعبنا مستحيل

وأن الكمال بكوكبنا مستحيل

وأن التكامل.. سر النجاح

وأن التفاعل.. سر النجاح

وأن التسامح.. سر النجاح

وأن الظلام.. طريق الصباح

تعالي إلى جانبي نتولّ القياده

إلبسيني قلاده

دعينا نترجم معنى السعاده!!

ولن أستطيع مغادرة هذا الباب حتى أشيد بقصيدته (أبي في رحلة التسعين) التي أراها من أجمل القصائد التي قيلت في الأب - وهي من بحر البسيط الذي يجيد الابحار فيه - فأجتزئ منها هذه الأبيات:

أبــي ويا لأبــي من أجـلنا فقـدتْ
عيونــه ضــوءها والمـوج يحتــدمُ

لم يبنِ في عمــره بيتا ولا ملكـت
يمينــه خَـــدَما أو .. زاره خـــدم

ثم يقول مخاطبا أباه رحمه الله رحمة واسعة:

قضيت أعوامك التسعين في شظف
وكنت أنت الغِنى والمعدمون همو

عشـــنا بظـلك لا بيـــت يظـــللنا
وكنــت أعظــم قصــر فيه ننسجم

ولشاعرنا جولات وصولات في أماكن سياحية جميلة زارها شرقا وغربا لا يمكن الإلمام بها جميعا، لكنني أكتفي بهذا الجزء اليسير من قصيدته في منطقة (أقشور) السياحية بالقرب من طنجة المغربية إذ يقول في مطلعها:

هل داخلون نحن أخضر الربيع أم نحن داخلون أحمر الشفق

ندى الربيع صار يطفئ الحريق وشعلة الغروب تحذر الغرق

إلى أن يقول:

نار الغروب كادت تحرق الغيوم والماء صار يتلو سورة الفلق

والنهر يجري باسما وضاحكا والزهر من أشداقه قد انبثق

هنا الصـبايا ينتثـرن جوهرا كقطع الألماس تلهو في العنق

هـنا معزوفـة بـدا يعزفـها ولوحـة يرسـمها هـذا الألـق

ولم ينس شاعرنا العسعوس نصيبه من قصائد روحانية تنضح إيمانا مثل قصيدته (اعتذارية للمصطفى) وقصيدته (نور البصيرة)، وكلاهما في ديوانه الأخير، غير أني سأستشهد على هذا الغرض بقصيدة له قديمة من ديوانه الأول (دوائر للحزن والفرح) لطرافتها.. عنوانها حوار مع فاتنة أجعلها مسك الختام.. يقول فيها:

فإن تُـرِدْ صـداقتي فأعطني كـل الجـلال

واركض ورائي دائما واطمح إلى هذا الجمال

واركع وأنت صاغر ولا تفكر فـي المـآل!!

فقلت: لا ، وإنمـا أبغـي إجابـة السـؤال

من أنتِ يا مغرورة؟ ويـا دعيـة الكمـال؟!

فابتسمتْ فـي عـزةٍ والثغرُ منـها كالهـلال

وتمتمتْ: أنـا .. أنـا دنيـا سـريعة الـزوال!!

***

الفهرس

بين يدي الكتاب 7

أبو ذؤيب الهذلي في معرض الكتاب 11

مسكين الدارمي : شاعر الدعاية والإعلان 19

عبد الرحمن بن أبي عمار : الناسك العاشق 33

يزيد بن الطثرية : شاعر قتلته أناقته 55

أبو دلامة : المتسول الظريف 65

المعتمد بن عباد : الملك الشقي 75

ابن عنين : شاعر يسكنه القلق 91

البهاء زهير : الباحث عن إمارة ولقمة عيش 111

زكي قنصل : آخر الشعراء المهجريين 131

حمد العسعوس : الشاعر الوديع 141

المؤلف

ماجستير في علم اللغة التطبيقي في مجال تعليم اللغة العربية لغير العرب – جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية . 1985

بكالوريوس في اللغة العربية وآدابها والتربية – جامعة الملك عبد العزيز .1974

عمل في التدريس والإدارة المدرسية و الإشراف التربوي في وزارة التربية ثم في المؤسسة العامة للتعليم الفني والتدريب المهني مديرا لإدارة الأبحاث والمناهج . (1997 – 1974)

أعيرت خدماته لمدة ثلاث سنوات رئيسا لوحدة المطبوعات والنشر بمكتب التربية العربي لدول الخليج (1987 – 1984).

تقاعد تقاعدا مبكرا وعمل في القطاع الخاص مديرا للموارد البشرية منذ عام 1997 إلى عام 2004

مؤلفاته المطبوعة:

0الأصـوات العربيـة وتدريسـها لغيـر النـاطقين بهـا مـن الراشدين .

*شاعر هذيل والمتحدث الرسمي باسم القبيلة .

0مقررات اللغة العربية للمعاهد الثانوية التابعة للمؤسسة العامـة للتعلـيم الفنـي والتـدريب المهنـي بالمملكـة العربيـة السعودية (مؤلف مشارك) .

0مداد من غيوم (ديوان شعر)

ظهر الغلاف

.....

.....

الصورة الشخصية

.....

... " ولذلك لم أتناول ما تعارف عليه النقاد من أنهم كبار الشعراء لأني لا أعترف للشعر بكبير ولا أمير ، فالشعر خلجة من خلجات النفس إذا لامست الموهبة المتقدة جاءت تجربة شعرية متميزة مبدعة ، وكان الشاعر متميزا مبدعا وأتى بما لم تستطعه الأوائل !! لذا كان معظم ضيوف هذا الكتاب من الشعراء الأقل شهرة أو الذين نسيهم الزمان في طياته ، لكنهم كانوا أصدق تعبيرا عن دواخلهم وأثرى تجربة .. هكذا بدوا لي وأنا أحاول الغوص في مكنونات أنفسهم ، وأستجلي صورهم " ..

... " إنه كتاب ينتمي إلى الكتب ذات الطابع الترويحي الخفيف ، ففيه حكايات طريفة مسلية لبعضهم وقصص محزنة ونهايات مأساوية لآخرين ، وفيه نماذج لشعراء نذروا أنفسهم للحب وأخلصوا له ، وشعراء اتخذوا الحب تقليدا أو تسلية , وفيه أمثلة لشعراء مكافحين أمضوا حياتهم بحثا عن كرامة أو منصب أو حتى لقمة عيش ، وآخرين لاهين عابثين يعيشون عالة على المحسنين ويستخدمون لذلك شتى الوسائل من استجداء أو مديح كاذب أو حتى هجاء " !!